د.رواء محمود حسين

عشق قرقّلا

رواية

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في جمادى الثانية، ١٤٣٦/أبريل، ٢٠١٥.

يمنع منعا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: فـوزية الألمعي
تصميم الغلاف: إدريس يحيى
التدقيق اللغوي: خيرية الألمعي

نبذة عن الكتاب

هذه حكاية منفي أبعدته الفتنة عن وطنه واضطرته إلى المنفى والمنفى بحثاً عن الأمن المفقود في وطنه، عسى أن يتحقق الصلح بين أبنائه، ويتمكن يوماً من العودة إليه إن شاء الله.

محتـــويات الكتـــاب

نبذة عن الكتاب ٢
محتـــويات الكتـــاب ٣
الإهداء ٤
بسم الله الرحمن الرحيم ٥
١- ٦
٢- ٢٢
٣- ٣١
٤- ٤٩
٥- ٦٠
٦- ٧٢
٧- ٧٧
٨- ٨٦
٩- ٩٣
١٠- ٩٦
١١- ١٠٠
١٢- ١٠٣
١٣- ١١٠

الإهداء

إلى والدتي ووالدي

إلى شيخي د. عبد الحكيم الأنيس

إلى زوجتي وابنتي

وإلى الحاج ياسر البياتي (أبو زيد)

والدكتور محمد حكيم أوغلو

والدكتور عبد الصمد يشيلداغ

والحاج مرتضى دونميز

إلى زملاء وطالبات وطلاب جامعة قرقّلا

إلى أهالي قرقّلا الطيبين

إلى شعب الأناضول الطيب

شكرًا لكم جميعًا فقد تعلّمتُ منكم جميعًا درس الإحسان الديني والإنساني

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

حمدًا لله بارئ السموات والأرض، وصلاةً وسلامًا على عباده الذين اصطفى:

هذه حكاية منفيٍّ أبعدتْه الفتنة عن وطنه واضطرتْه إلى المنفى والمنفى بحثًا عن الأمن المفقود في وطنه، عسى أن يتحقق الصلح بين أبنائه، ويتمكّن يومًا من العودة إليه إن شاء الله.

أوفاجك مهلسي

قرقّلا

-١-

وانطلقت الحافلة تذرع ببطء شوارع العاصمة دار السلام بازدحاماتها الخانقة، بالرغم من أن الوقت لا يزال باكرًا، إذ يبدو أن لا فرق في دار السلام من ناحية الوقت فالكل متشنّج، يلهث وراء يومه أو حتفه لا فرق. وما تبقى من انطلاقة الحافلة تلك الذكريات المؤلمة غير القابلة للنسيان وقد رمت بغلالة من الحزن على الذكريات الفرحة، ووداع الأهل والأقارب قبلها بأيام أو ساعات أو دقائق، والرغبة في الخلاص، أو الهرب! لكن الهرب إلى أين؟ فالحافلة تسير نحو المجهول، هذا المجهول الذي قررت أن أسير نحوه مستسلمًا له بكل ثقة، فلم يعد حيث أقطن ما يمكن أن أبقي عائلتي المسكينة لأجله، فكل ما تبقى لديّ هو الرغبة في توفير ملاذ آمن لهم بعد أن فشل الوطن في توفيره.

بدأ الاستعداد للمجهول منذ أشهر، وتحديدًا في اللحظة التي اتصلتْ بي زوجتي بالهاتف لتخبرني أن أبا أنس قد أُغتيل! أجهزت عليه الآيادي الآثمة بعد أن خرج للتو من صلاة المغرب، بالقرب من منزله. فما كان أشد وقع الصدمة عليّ! الجبناء الآثمون بالتأكيد هم من يقف وراء اغتياله، لم يكن من شك في أنهم كذلك؛ لأننا كلنا نعرف الرجل، فكل من عرفه أحبه، وطيلة ثلاثين عامًا قضاها صهرنا أبو أنس بين أظهرنا لم نعرف عنه إلا الصلاح والتقوى، فلم يكن لديه من هم إلا أن يصلح بين اثنين

متخاصمين ليكون هو ثالثهما فلا يفارقهما إلا إذا تصافحت الأيدي، وتعانقت الأجساد، وابتسم كل منهما بوجه أخيه.

فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها بعيد وقت قليل من إصابته بتلك الإطلاقات الآثمة في أجزاء مختلفة من جسده، وترك من خلفه زوجة أوشكت أن تفقد عقلها من هول الصدمة، وثلاثة شباب أوصلهم كدُّه وتعبه وسهره إلى التخرج من كلية الهندسة، وابنتين يافعتين، وأقاربه وأصدقاءه الذين يذكرونه بخير على الدوام، ويدعون له، ويطلبون له الفردوس. وترك من خلفه القتلة أيضًا، وسيأتي بدمه يوم لا ينفع مال ولا بنون ليسأل مَن نفخ فيه الروح وسواه بأحسن تقويم بأي ذنب قتله أولئك المجرمون، وسيعلم هؤلاء حجم خسارتهم آنذاك.

الصدمة يومها كانت شديدة علينا للغاية، لكن ماذا نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل.

إنها تلك الصدمة ذاتها التي جعلت شخصًا مثلي، يحسب ألف حساب لأي قرار يتخذه، أن يضع حدًّا لقلقه وحساباته، وأن يطلب هذه المرة صداقة المجهول، فلم يعد ثمة رغبة في الانتظار أو التأجيل لقرار كانت أمي على الدوام تصف مَن اتخذه بالشجاع والجسور، فكانت تقول دائمًا لي: فاز باللذات من كان جسورًا. قررتُ مغادرة الوطن والبحث عن فرصة للوصول إلى مكان آمن لي ولعائلتي.

وأخذت الحافلة تسير لكن ببطء، ويبدو أن المسافرين معنا قد أخذ يتملكهم الضجر بعد أن بدؤوا يكتشفون أن شركة النقليات التي قطعوا تذاكر السفر فيها ليست بالمستوى السياحي المطلوب، إذا ما قورنت بشركات أخرى تنقل المسافرين إلى عمورية. فوزعوا أوقاتهم بين راكبة قضت معظم الوقت في الحديث مع أخرى استسلمت للنوم ما أن تركت الاولى الحافلة مع دخولنا سلوبيا، أول مدينة تقريبًا بعد الحدود، ومجموعة

من كبار السن، يبدو أنهم أرادوا أن يستعيدوا ذكريات شبابهم بهذه السفرة، فكانت لديهم خريطة لبلاد الأناضول، أخذوا يتفحصونها من وقت إلى آخر، وآخرين قضوا الوقت بمشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة ابتداءً من القلعة التاريخية وصولًا إلى عمورية.

أما أمي فقد قضت الرحلة تقريبًا في النوم. كانت متعبة جدًّا من الجهد الذي بذلته خلال الأسبوعين الفائتين في مساعدتنا من أجل لملمة حاجيات السفر، وفي تصفية بيتنا في دار السلام حيث كنا نسكن؛ لأن البيت يعود إلى أقارب زوجتي، وكان من عادتي في كل المنازل التي تركتُها (في درنة، وبكسا، والحمرية، وهايدلبرج، وفي دار السلام) أن أسلّم البيت كما تسلمته من صاحبه، بل بأحسن وبأبهى حلة، لأترك صاحبه يودّعنا والدموع تملأ عينيه، آملًا أن نعود إليه مجددًا.

ابنتي فرحة كانت مشاكسة كعادتها! عيناها بسعة الحلم، وفتحة القلب التي سببتها لي ولادتها قبل أربع سنوات لا زالت تتسع يومًا بعد آخر، حتى أصبحت تملأ عالمنا سرورًا وغبطة. أما أمها فقد أكلها التعب بعد أن استهلكت طاقتها كلها في لملمة حاجيات السفر، وفي تصفية أمور منزلنا القديم، فكانت تغشاها إغفاءة تلو أخرى إلى أن وصلنا عمورية.

وصلنا إلى العاصمة عمورية عند منتصف الليل تقريبًا، بعد أن أخذ التعب منا كل مأخذ بسبب رحلة طالت لمدة يومين. أنزلنا الباص خارج أوتو غار آشتي، وكان يفترض بالشركة أن تنزلنا داخله من أجل الاستفادة من الخدمات المجانية التي تمنح عادة للمسافرين من قبل الشركات الأناضولية، لكن كانت هذه هفوة أخرى من هفوات الشركة والتي بدأنا خلال الرحلة باكتشافها.

انتظرنا قليلًا حتى جاء الأخ ميسر، وكأنه نزل علينا من كوكب آخر؛ لأننا تفاجئنا لأول وهلة بصعوبة الأمر ما أن حطت أقدامنا على أرض عمورية، فلا أحد

يتكلم العربية من حولنا، ولا هاتف خليوي يمكنني الاتصال بميسر عن طريقه، مع العلم أنني قد اتصلتُ به أثناء الطريق، وأعلمتُه بموعد وصولنا التقريبي، لكن يبدو أنه كان في انتظارنا داخل المرآب؛ لأنه تصور أن الشركة ستوفي بالتزامها بإنزالنا داخله، لكنها لم تفعل.

ميسر: هذا الأخ في الله، والذي مرّت على فراقي له أكثر من ثلاث عشرة سنة. كان زميلًا لي أثناء دراسة البكالوريوس في الجامعة في تسعينيات القرن العشرين الماضي، لكن لم تكن علاقتي به بالقوية أثناء الدراسة، بل كانت علاقة عادية كأي زميل آخر. لكني استعدتُ إخوّته بعد أن أعلمني أخونا محمد جاسم، أنه يعدّ الدكتوراه في الأناضول، فاتصلتُ به من العاصمة دار السلام، بعد وفاة أبي أنس _ رحمه الله _، من أجل الاستعلام عن طبيعة الحياة في عمورية خصوصًا وفي الأناضول عمومًا، وكانت الأجوبة التي حصلت عليها من خلاله خصوصًا بالنسبة لمنفي مثلي، قرّر المضيّ في هذا الطريق المجهول.

كانت أهم الاسئلة التي طرحتها على ميسر تخص المعيشة في الأناضول، فقد كانت المسألة الأهم بالنسبة لي هي معرفة ما هو مطلوب من مال للمعيشة هناك، وتفاصيل تتعلق باستخدام الغاز في الشتاء للتدفئة، وفواتير الماء والكهرباء وغير ذلك. وقد أجاب ميسر على كل الأسئلة التي طرحتها عليه بكل أمانة ودقة، وهو ما لاحظتُه في الأيام التي عشتُها في قرقّلا فيما بعد.

استمرت الاتصالات مع ميسر من دار السلام، إلى أن وصلنا عمورية، فوجدناه نعم الأخ في الله، ولم يدّخر جهدًا في خدمتنا، وتقديم كل المساعدة لنا. ابتداءً من أول سكن نزلناه في عمورية، تلك الشقة المؤثثة في محلة أورنك مهللسي لصاحبها الرجل الأناضولي المسن والطيب، والذي غادرها فور أن وصلنا وأعطانا المفتاح مقابل مائتين

وخمسين ليرة ثمن السكن لمدة أربعة أيام، وغادر ميسر معه بعد أن تم الاتفاق على اللقاء به خلال اليوم التالي.

يومان سبقا تقديم طلب المنفى وقد مرّا بشكل روتيني، وقد سارت فيهما الأمور بهدوء وانسيابية. انتظرنا يوم الإثنين بفارغ الصبر لأنه اليوم الذي سنفتتح فيه صداقة المجهول، ولأنه يوم مشروع الخلاص الذين نرجوه _ إن شاء الله _.

ذهبنا الى دائرة المنفى في عمورية ضحوة يوم الإثنين وسلّمتُ جوازي وجوازات عائلتي إلى قسم المنفيّين، وانتظرنا مدة ساعة تقريبًا من أجل الحصول على ورقة الحماية، ولتحديد المدينة التي ستقرر الدائرة المسؤولة عن المنفى ذهابنا إليها.

من دار السلام، ومن خلال اتصالاتي مع الأخ ميسر علمتُ أن دائرة المنفيّين هي التي تحدّد المدينة التي يتعيّن على المنفيِّ الذهاب إليها، وأن ليس بمقدور أحد اختيار أي مدينة شاء. في البدء، أشار ميسر أن أقرب مدينة إلى عمورية هي مدينة بولو، وأنها تبعد عنها مدة ساعة ونصف بالسيارة، لكنه ذكر أن هذه المدينة باردة خصوصًا في الشتاء، فهي لا تكاد تغادر شتاءها إلا يسيرًا. ولكنه أشار عليّ بشيء مهم، وهو أن أصلي ركعتين لأستخير الله _ سبحانه _ بخصوص أفضل منطقة يمكن أن نذهب إليها، ثم التشاور مع والدتي وزوجتي أم فرحة بالموضوع.

وقفنا يوم تقديم الطلب إلى المفوضية ننتظر الحصول على ورقة الحماية، ومن غير تخطيط مسبق سمعنا اثنين من الناس من وطننا، أبو سالي وابن عمه إياد، يتحدثان عن سكنهما في مدينة قريبة جدًّا من عمورية فلا تبعد عنها إلا ساعة واحدة فقط بالسيارة، وشجّعاني على اختيارها مدينة لسكننا في الأناضول، فاخترتُها، وكانت تلك هي مدينة قرقّلا.

وقع الخبر موقع الفرح العظيم عند والدتي وزوجتي بعد أن عدت إلى البيت وأخبرتهما بأمر قرقّلا، فالمدينة قريبة من عمورية، وهذا ما كنا نتمناه، أي أن نسكن في مدينة تقع بالقرب من عمورية لأن كل إجراءاتنا في دائرة المنفيّين فيها. هذا ما كنا نتصوره عندما جئنا إلى الأناضول، لكن تبيّن أن تصورنا خاطئ، فما مطلوب إنجازه في عمورية هو المقابلة الاولى فقط من أجل الحصول على موافقة دائرة المنفيّين لإعادة النفي، أما المقابلات الأخرى فستكون في القسطنطينية من أجل إجراء بقية الاجراءات المرتبطة بالمنفى.

اتفقت مع ميسر على الذهاب في اليوم التالي إلى قرقّلا في الصباح الباكر من أجل إنجاز إجراءات الاقامة، وتأجير منزل مناسب، والتعرف إلى المدينة. صباح اليوم التالي انطلقت الحافلة من أوتو غار آشتي، مرآب النقل المركزي في عمورية، متجهةً إلى قرقّلا، فكانت تشقُّ بنا الطريق ببطء ملحوظ تقريبًا وسط التلال والجبال والقرى والبلدات المطلة على جانبي الطريق.

وفي حدود الساعة الواحدة تقريبًا، كنا قد وصلنا إلى مركز قرقّلا، أنا وزوجتي، وابنتي وميسر. ذهبنا بشكل مباشر إلى قسم الشرطة من أجل الاستعلام عن إجراءت الحصول على ما يسمى في الأناضول ب (الكملك)، أي: تصريح الاقامة، فأعلمنا من قبل موظفي الشرطة بأنه يتعيّن علينا أن نستأجر بيتًا ثم نقدم الطلب من أجل الحصول على الإقامة.

غادرنا قسم الشرطة على عجل من أجل البحث عن سكن نستأجره فلم تتأخر محاولتنا كثيرًا، ففي عمورية جادسي، قرقّلا مركز، كان القدر قد هيّأ لنا سكنًا ملائمًا استأجرناه من امرأة أناضولية وبمعونة سمسار عقارات أناضولي طيب، وقد حرصتْ صاحبة الشقة على تذكيرنا بأنها تشترط السكن في الشقة لمدة سنة. بالطبع، لم يكن

الأمر ملائمًا لنا؛ لأنني وعائلتي منفيّون، ولا ندري ما يُفعل بنا، ولا أين سيكون مصيرنا. وهنا أدّى ميسر دورًا حاسمًا في الترجمة من العربية إلى الأناضولية، فشرح الأمر لها ولزوجها، وتفهّما الأمر بعد جهد جهيد.

ومهما يكن من أمر فأنا مؤمن بالقدر خيره وشره، والحمد لله على قضائه وقدره، وله الحمد رب السموات والأرض رب العرش العظيم.

دفعت للسيدة سبعمائة ليرة أناضولية ثمنًا لإيجار الشقة لمدة شهرين، فقد قرّرتْ أن يكون بدل إيجار الشقة الشهري هو ثلاثمائة وخمسين ليرة أناضولية شهريًّا. أما سمسار العقارات الأناضولي الطيب فقد تسلّم مبلغ ثلاثمائة ليرة أناضولية لقاء خدماته. بعدها بدأ التجوال المرثوني في قرقّلا من أجل تأمين باقي الحاجيات. وكنتُ قد علمتُ من ميسر قبلها أنه تنتشر في الأناضول محلات لبيع الأغراض المستعملة، وأن أسعارها لا تُذكر إذا ما قورنت مع الأشياء الجديدة.

تجولنا في المدينة بحثًا عن محل لبيع الأغراض المستعملة، وبعد بحث وتجوال وجدنا محلًّا قريبًا من الشقة التي استأجرنها. تحدّث ميسر معه باللغة الأناضولية حول أسعار الحاجيات التي يبيعها، فوجدنا أن أسعاره مقبولة. وبالطبع، فقد اشتملتْ قائمة المشتريات على تلفاز، وغسّالة، وسريرين، وثلاجة، وهلم جرّا... وقد تعهّد صاحب المحل بأنه سيأتي بالأغراض المشتراة إلى بيتنا، وهذا ما تحقّق في اليوم التالي، حيث قَدِمنا أنا وأمي وزوجتي وابنتي وميسر بالطبع في اليوم التالي من عمورية إلى قرقّلا، بعد ترك الشقة الأولى التي استأجرناها.

لم يكن بالبال أنّ صعوباتٍ يمكن أن تواجه عملية تأثيث الشقة. فقد فوجئتُ في البداية أن القمر الصناعي نايل سات لا يمكن أن يُلتقط من قبل الصحن اللاقط بالنظر لأن العمارة التي أسكن فيها محاطة بالعمارات السكنية من كل الجهات. ولذلك كان

يتعيّن علينا أنا وزوجتي وابنتي أن نقنع بالقمر الأناضولي، بالرغم من أن اللغة الأناضولية هي لغة القنوات المعروضة فيه، لكنني في قرارة نفسي كنتُ مقتنعًا لأن من شأن القنوات الأناضولية أن توفر لي فرصة ذهبية لتعلم اللغة الأناضولية، وهي لغة مهمة جدًّا خصوصًا في مجالات الدراسات الإسلامية والدراسات الشرق أوسطية والتاريخ العثماني.

جاء صاحب الأثاث المستعمل بالأغراض يومها، وهيّأنا الشقة للاستقرار، فوضعنا الستائر، ورتّبنا الأثاث في صالة الشقة وفي غرفها، وتهيّأنا لرحلة قرقّلا الطويلة. عدتُ وميسر إلى الشقة من أجل أن يودّع والدتي وزوجتي وفرحة. فقالت له والدتي:

ابني ميسر: وفقك الله أينما حللتَ وارتحلتَ. سأدعو لك بالتوفيق دائمًا فقد كنتَ خير الأخ والابن والصديق والعون هنا في الأناضول.

فأجاب: عفوًا يا خالة، لا شكر على واجب، فنحن أخوة، وأنا لم أقم إلا بما يمليه واجب الأخوّة عليّ.

عانقتُ ميسر بحرارة وشكرتُه على كل ما قدّم من يد العون، ودعوتُ له بالتوفيق ولعائلته كل الخير. أما أم فرحة فقد شكرتْه وسألتْ له التوفيق والعناية الإلهية.

وفي المساء حدثتْنا والدتي بقرارها بالرحيل إلى الوطن، فقد كان لديها العديد من الالتزامات فيه، وأولها متعلقاتنا المالية من الجامعة، لأننا قد تركنا العديد من المتعلقات المالية والإدارية، بعد أن أعددنا العدة للهرب إلى الأناضول، ومن غير أن نُعلِم أحدًا بنيّتنا طلب المنفى فيها. واتفقنا أن أوصلها ظهر اليوم التالي إلى أوتوغار آشتي حيث ستأخذ الباص الذي سيعيدها إلى الوطن.

أهم ما واجهتُه من مشكلات صباح اليوم التالي الذي أعقب رحيل ميسر هو تشغيل الغاز الذي يصل إلى الشقة في أنابيب من دائرة الغاز الأناضولية (قر غاز). فقد ذهبنا أنا وميسر قبل رحيله إلى دائرة الغاز، ففوجئنا لأول وهلة أن موظفة الغاز المسؤولة تقول أن المستأجر السابق لم يغلق حسابه، فاتصلنا بالسمسار على عجل والذي لم يغب طويلًا حتى جاء بالورقة التي تثبت إغلاق الحساب. وَعَدَنا موظفو الغاز أنهم سيأتون إلى الشقة من أجل فتح صنابير الغاز المتصلة بالعداد، لكنهم لم يأتوا في اليوم نفسه. اُضطررت للذهاب صباحًا أنا ووالدتي إلى دائرة الغاز ورجوتُهم بضرورة خروج الكادر المتخصص معي من أجل ذلك؛ لأن لديّ عائلة، ولأن الغاز مهم جدًّا للطبخ وللتدفئة. وَعَدَني أحدهم بأن فريق عمل سيأتي مساءً من أجل ذلك.

وفي الظهيرة، ودّعتْ والدتي أم فرحة زوجتي وابنتي فرحة، والدموع تملأ عينيها، وكلنا أمل أن نلتقي من جديد، وأن نجتمع مرة أخرى في وضع أكثر أمنًا. وبينما كنا نقطع الطريق من قرقّلا إلى عمورية فقد كانت والدتي تدعو لي وهي تذرف الدموع، وتكرر من مرة إلى خرى:

ربِّ، لقد وضعتُه أمانة بين بين يديك الكريمتين!

عدتُ مساءً إلى البيت، وكم كانت فرحتي كبيرة حين أخبرتني أم فرحة لما وصلتُ إلى البيت أن فريق عمل دائرة الغاز قدم إلى الشقة مساءً، وفتحوا عداد الغاز الخاص بنا. حمدتُ الله كثيرًا يومها، فقد كانت هذه إحدى المشكلات المهمة التي عالجتُها في هذه المدة المبكرة من إقامتنا في قرقّلا.

وبسبب هذه الفرحة العارمة فقد قرّرتُ في المساء نفسه أن أصطحب زوجتي وابنتي إلى الحديقة القريبة من منزلنا، وكانت هذه المرة الأولى التي أصطحبهم للخروج

من أجل الترفيه نوعًا ما. كما كانت هذه المرة الأولى التي تلعب فيها فرحة في الألعاب المنتشرة في الحدائقة الأناضولية.

كنتُ مكتئبًا للغاية في الأيام التي تلتْ رحيل والدتي إلى الوطن. رافقتني الكآبة صباح مساء؛ لأنني لم أتحدّث خلالها تقريبًا إلا إلى عائلتي، وكنتُ أتصوّر أنني الوطني الوحيد في المدينة. وعلى الرغم من الظروف النفسية بالغة الصعوبة التي عشتُها تلك الأيام لكنني لم أحدّث نفسي أبدًا بالعودة إلى الوطن، فقد كنتُ أستعين بالصبر والصلاة وقراءة الذكر الحكيم.

أما نشاطي العلمي المعتاد فلم يكن بالمستوى المطلوب كما كان من قبل؛ لأنني افتقدتُ إحدى أهم أدواتي العلمية هنا في البداية، ذلك هو الإنترنت.

كما أنني غالبًا ما استفدتُ من نظرية اشتغلتُ على تطويرها في الوطن، وقد أسميتُها قبل أن أهرب منه بـ (نظرية الحالة النفسية للغربة). تستند هذه النظرية إلى تفحُّص ما يسمّى بـ (الهوم سكنيس)، أي: مرض الحنين إلى الوطن، بشكل جذري. وهذا المرض فيما أتصوّر يستند إلى المقارنة بين الصور الجميلة في الوطن وصور الغربة المتعبة والكئيبة. الحل الذي قدّمتُه لهذا المرض النفسي يقوم على عكس نظام التقاط الصور في العقل بحيث يكون وطن المنفى، أي: وطن الغربة، مشبعًا بالصور الجميلة، وبذلك وجدتُ حلًّا ولو بدائيًّا لمرض الهوم سكنيس المعقد.

وبهذه الوسائل النفسية حاولتُ أن أتعامل مع الأيام الأولى للغربة بكآبتها وثقلها بطريقة علمية من أجل أن أطور وسائل دفاعية فعالة تساعدني على تجاوز المحنة.

مرت الأيام الأولى بهذه الطريقة إلى أن التقيتُ بعابد من غير تخطيط مسبق. التقيتُه في إحدى مراجعاتي لقسم الشرطة من أجل إنجاز معاملة الإقامة خاصتي، ولا بد من الاعتراف أن التقائي به كان جذريًّا! رأيتُه أول مرة أمام مبنى دائرة المنفى حينما

قدّمتُ طلب المنفى لأول مرة، وعندما كان يناضل من أجل الحصول على الموافقة من أجل السماح له بالاستقرار في ولاية جرم، لكن الموظفة لم تسمح له بذلك، بحجج ودوافع ذكرتْها. حينها، على ما أذكر، طلب السماح له ولعائلته بالاستقرار في القسطنطينية، فتمت الموافقة على طلبه.

فوجئتُ أيما مفاجئة حينما رأيتُه في قسم الشرطة في قرقّلا، فعرفته، كعادتي، حينما أتذكّر الشخص الذي رأيتُه مرة واحدة في حياتي ولو رأيتُه بعد زمن طويل، ولكنه لم يعرفني. وبعد أن غادرنا قسم الشرطة تحدثتُ إليه فذكرتُه بما كان أمام مبنى دائرة المنفى لأول مرة، ولكنه لم يتذكر إلا يسيرًا! وسألتُه عن أسباب تغيير قراره بالاستقرار في القسطنطينية، فقال:

أنا لم أذهب إلى القسطنطينية أصلًا!

فسألتُه: ولِمَ!

فأجاب: قررتُ يومها أن أبقى في عمورية مع عائلتي، وعدتُ بعد أيام إلى الدائرة وسألتُهم السماح لي بالانتقال إلى مدينة أخرى، فتمت الموافقة على قرقّلا.

على العموم بدأتْ أول بوادر كسر الحاجز النفسي الكآبي للغربة مع عابد، وأول ما تعلّمتُه منه أن في قرقّلا سوقًا يعقد لمرة واحدة في الأسبوع، تباع فيه الخضر والفواكه، وهو سوق رخيص جدًّا إذا ما قورنت أسعاره ببقية البقالات والمحالّ في المدينة. ذهبنا في جولة قصيرة نستكشف المدينة، وإذا بنا نكتشف أن السوق لا يبعد إلا خطوات قليلة من شقتي، وفرحتُ بذلك أيما فرح. وبعد جولة قصيرة في المدينة أرشدتُه فيها إلى وجود مدينة صغيرة للألعاب قريبة من شقتي، واتفقنا على اللقاء في حديقة قريبة من بيته مع عوائلنا من أجل أن يتم التعارف بين زوجتي وزوجته وابنتي فرحة مع بناته الثلاثة.

تكرر لقائي بعابد كثيرًا، وبشكل يومي تقريبًا. وأخذنا نستكشف قرقّلا تدريجيًّا. وذات مرة أخبرني عابد أنه سمع من المنفيّين بوجود متنزه قريب يقع على ضفة النهر قريبًا من المدينة. ركبنا الباص المتجه إلى المتنزه والذي أخذ يذرع الطريق مسرعًا، سالكًا طريقًا جميلًا يخترق التلال المغطاة بالأشجار الخضراء والورود الملونة بالألوان المختلفة. فلما وصلنا إليه علمنا أن المتنزه يقع في مدينة باهشلي إحدى المدن الصغيرة المنتشرة على أطراف قرقّلا. كان البارك يقع في أجمل ما رأته عيناي من مدن العالم، حيث النهر يخترق الجبال والتلال المطلة على ضفتيه، وقد انتشرت الأكشاك التي أُنجِزت من قِبَل بلدية المدينة على ضفة النهر بحيث تم تخصيصها لاستراحة واستجمام العوائل القادمة إلى المنطقة.

رتبّنا موعدًا من أجل اصطحاب عائلتينا إلى المتنزه في اليوم التالي، وكم كان الوقت الذي قضيناه ممتعًا ونحن نتمتع برؤية المشاهد الساحرة المطلة على النهر، فيما كانت أم فرحة تتبادل الحديث مع زوجته، وابنتي فرحة كالعادة تقضي الوقت في اللعب مع أطفاله.

تعلّمتُ من عابد الكثير من دروس المنفى:

تعلّمتُ منه أنه من أجل إنجاز معاملاتي هنا لا بد أن أمارس الإلحاح المنظم، فلا شيء يتحقق إذا كنتُ جالسًا في بيتي. وبنظرية الإلحاح المبرمج أنجزتُ معاملة الإقامة لي ولعائلتي، (إقامة منفيّين بالطبع)، بعد أن تأجلت مرات عدة. وبهذه النظرية تمكّنتُ من تقليص مدة المقابلة الأولى في المفوضية ما يقرب من شهر ونصف، فقد كان من المقرر أن انتظر لمدة شهرين ونصف من أجلها، لكن بالنظرية المذكورة تمت المقابلة في غضون شهر والحمد لله.

وقد دلّني عابد على المكان الذي يلتقي فيه المنفيّون، وهو يقع في وسط المدينة بالضبط، بالقرب من قسم الشرطة، حيث يسمّى المكان بـ (الهيكل)، وهو تمثال متوسط الحجم لمصطفى كمال أتاتورك. ولم يكن الواقفون قرب الهيكل من المنفيّين ضمن شريحة واحدة، بل كانوا في مستويات اجتماعية واقتصادية وثقافية متنوعة. ومنهم تعلّمتُ دروسًا كثيرة حول موضوع المنفى، حتى إنني سمعت أحدهم، وهو أبو عبد الرحمن، ذات مرة، يقول: المنفى هنا في الأناضول يسمى (وطن سز)، فقلت في نفسي لما سمعت ذلك مباشرة: أوه! إذن المسألة عبارة عن (وطن سز).

ولعل سعد وفارس نموذجان من النماذج التي التقيتُها قرب الهيكل ثم توطدت علاقتي بهما كليهما.

سعد قصير القامة، حليق الشعر بالكامل تقريبًا، ملامح الحزن والكآبة بادية بشكل دائمي على تفاصيل وجهه، وفوق هذا وذاك، كانت يده اليمنى مشلولة تقريبًا! وقد قصّ عليّ فيما بعد قصة يده، فقد اقتاده الظلاميون إلى منطقة نائية، وأطلقوا النار على يده، فأُغمي عليه، ولم يصحُ من إغمائه إلا في المستشفى، وقد شُلت يده.

أما فارس فلا تزال آثار الهجمات بادية على قدمه، وقد كانت تلك الهجمات من جراء إطلاق الظلاميين النار عليه أيضًا.

إذن سعد وفارس صورتان من صور الضحايا في الوطن، فكلاهما ينتمي إلى طائفة مختلفة، لكن العنف لم يفرق بينهما، فهاهما في قرقّلا، وقد قدّم كلٌّ منهما طلب المنفى إلى مفوضية المنفيّين.

وهكذا كان الهيكل في قرقّلا أشبه بمجلس نواب المنفيين أو المنفيين. يلتقي فيه الجميع تقريبًا من أجل مناقشة قضايا المنفى الخاصة بهم، فقد كانت إجراءات المنفى الخاصة بها هي الشغل الشاغل للجميع بدون استثناء وبضمنهم أنا. وبالطبع فقد أفدتُ

الكثير من تلك النقاشات الدائرة آنذاك ليس فقط فيما يتعلق بقضية المنفى الخاصة بي وبعائلتي بل في فهم الكثير مما يمكن أن أواجهه هنا في الأناضول بشكل عام.

والواقع أنني في لقائاتي مع المنفيّين كنتُ أتحرك ضمن العديد من النظريات التي اشتغلتُ على تطويرها في دار السلام، ومن ضمنها (نظرية الامتصاص) هذه النظرية القائلة وببساطة شديدة أنه لا بد من التحرك وبشكل دوري وروتيني من أجل فهم المحيط الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي وغيره من أجل توفير دائرة عقلانية أكبر، بحيث تفسح المجال أمام الحصول على أكبر مكاسب ممكنة في الغربة، ولهذه النظرية اسم آخر، ربما هو أكثر عمقًا وشمولًا وهو (نظرية اكتشاف المكان) فالمكان الجديد بحاجة ماسة وأكيدة إلى الاستكشاف، وتزداد هذه الحاجة في المنفى من أجل فهم المحيط الاجتماعي الذي يحيط بالإنسان.

من المنفيّين تعلّمتُ ضرورة استخراج الإقامة أو ما يُسمى باللغة الأناضولية (الكملك)، بالنظر لفائدته القصوى في مجالات عدة، خصوصًا في مراجعة المستشفيات الحكومية والصيدليات إذ تتم مراجعة الأطباء والصيدليات الحكومية التابعة للمؤسسة الاجتماعية (السوسيال) بشكل مجاني. وقد أكلني الهم قبل اكتشاف ذلك بالنظر لسرعة إصابة زوجتي وابنتي بالأمراض من جهة ولغلاء الأدوية من جهة أخرى. وهذا ما تحقّق فيما بعد بالفعل! إذ تمكّنتُ من اصطحاب زوجتي وابنتي إلى المستشفيات بشكل دائم من غير أن يتقاضى منا أحد شيئًا ما تقريبًا. وقبل الذهاب إلى المستشفيات كان لا بد من الذهاب إلى السوسيال من أجل تقييد ما يسمى هنا (ت ج كملك نمارة سه) أي: الرقم المدني، وبهذه الطريقة تمكّنا من الذهاب للعلاج.

ومن المنفيّين علمتُ بوجود مؤسسات اجتماعية تقدّم بعض المساعدات العينية للعوائل الأناضولية المتعففة وللمنفيّين أيضًا. فقدّمتُ أوراقي إلى بعضها وفوجئتُ

بالمؤسسة تمنحنا كرتونًا من المواد الغذائية. وبالطبع كانت الفرحة كبيرة عندها لأن من شأن الصندوق الذي حصلنا عليه أن يوفر بعض المال لنا مقابل ما موجود فيه من مواد غذائية.

ومن الإخوة المنفيّين تعلّمتُ إحدى النظريات المهمة، وهي ما أسميتُه بـ (نظرية اشتر ولا تبع)، والمقصود أنني إذا علِمتُ أمرًا من أحد تتحقّق فيه المصلحة والفائدة والنفع فليس من الضروري أن أخبر أحدًا بذلك، إلا في حالات إيصال الخير والنفع إلى من أثق به، لكن إذا كان الأمر يعود بالضرر عليّ حين يساء فهمه فالأفضل أن يكون الأمر مكتومًا إلا للأقربين.

ومنهم علِمتُ بوجود مؤسسة (الأناضول تيليكوم) أي: الاتصالات الأناضولية وهي المسؤولة عن الهواتف والإنترنت وغير ذلك. وكم كانت الفرحة كبيرة يوم أن تمكّنتُ من الحصول على أحد عروض الشركة المجانية لخط إنترنت لاسلكي تقوم الشركة بواسطة موظفيها بنصبه في منزلي. طبعاً بذلت بعض الجهد من أجل إنجاز معاملة الإنترنت، وكان للأخ ميسر جهد الترجمة عن طريق الهاتف. ولم أكد أصدق نفسي وأنا أنطلق في فضاء البحث الإفتراضي في الإنترنت، وفي موقع جوجل من حاسبنا المحمول في المنزل مرة أخرى بعد انتظار دام أسابيع، وأنا الذي أعدُّ الإنترنت مسألة في غاية الأهمية، خصوصًا في مجال إنجاز كتبي ومشاريعي البحثية وفي التواصل الاجتماعي والأكاديمي والعلمي.

سعدنا بشكل كبير، وخصوصًا أم فرحة، لما بدأنا أول ساعة في الإنترنت بالاتصال بأهلها وأخوتها في أرض الكنانة. وخصوصًا بأخيها أبو أحمد المقيم في أرض الكنانة، فقد كان صوته الدافئ الحنون مشجعًا لنا في أيامنا الأولى بشكل كبير.

وكانت الفرحة أكبر لما اتصلتْ بنا أخت زوجتي أم أرشد المقيمة في نيذيرلاند، وهنأتنا بدورها على الحصول على خط الإنترنت.

وهكذا بدأت الصعوبات تتذلل أمامنا الواحدة تلو الأخرى خصوصًا عائق اللغة. اللغة الأناضولية لغة جميلة ومهمة جدًّا لكن لم يتسنَّ لنا دراستها من قبل. فضلًا عن أنه لم يكن من السهل مقابلة شخص يتكلم اللغة العربية أو الإنكليزية، الأمر الذي زاد من صعوبة المسألة أمامنا. لكن يبدو أن (نظرية الاحتكاك اليومي باللغة) التي كنتُ قد اشتغلتُ على تطويرها في دار السلام كانت مفيدة لي. فقد كان الاختلاط اليومي بالأناضوليين أحد الوسائل المهمة التي طورتُ بها لغتي. كما أنني قد جلبتُ معي عددًا من الكتب المبسطة في تعلم اللغة الأناضولية والتي ساعدتني بشكل كبير في تذليل عائق اللغة. فبدأتُ بتعلم الحروف، والأرقام الأناضولية، والأيام كما تلفظ في الأناضول، وهكذا تطورتْ معرفتي باللغة بشكل تدريجي.

-٢-

ومن عابد أيضًا، وكما ذكرتُ سابقًا، علمتُ أن من الممكن تقديم طلب إلى دائرة المنفيّين من أجل تقديم موعد المقابلة. وهذا ما تحقق فعلًا! فقد مر بي ذات يوم هو وسعد وأخبراني بأنهما تمكّنا من تقديم الطلب إلى المفوضية من أجل تقديم موعد المقابلة لهما ولعوائلها، والتي كان من المفروض أن تتم بعد شهرين تقريبًا، لكن تمت الموافقة على طلبهما، وجرت المقابلة في غضون يوم واحد، أي: في اليوم التالي على الفور.

صبرًا جميلًا بذلتُ وأنا أنتظر يومي السبت والأحد، وهي أيام عطلة المفوضية، من أجل الذهاب إلى عمورية وتقديم موعد المقابلة. فقد ذهبتُ فجر يوم الإثنين التالي إلى عمورية ووصلتُ إلى مفوضية المنفيّين بشكل مبكر جدًّا. وبعد إلحاح وافقت المفوضية على تقديم موعد المقابلة إلى ما بعد خمسة أيام فقط من يوم الاثنين، إلى يوم الجمعة المقبل، أي: إلى أقل من شهر ونصف من الموعد السابق. فرحتُ بذلك أيما فرح، حتى أنني لما عدتُ إلى البيت وأبلغتُ زوجتي بالأمر لم تتحمل هول المفاجأة، لأنها كانت شبه يائسة من الموضوع، فانهمرت عيناها بالدموع.

مرت الأيام بسرعة خارقة حتى إذا جاء اليوم الذي تحدد فيه موعد المقابلة في المفوضية أيقظتُ زوجتي وابنتي فرحة عند الفجر تقريبًا، وانطلقنا على عجل لا نلوي على شيء إلا الوصول إلى المفوضية في الموعد المحدد.

لا زلتُ أذكر أننا كنا من أول الواصلين إلى المفوضية تقريبًا، لكننا كنا آخر من خرج منها في ذلك اليوم. مع ذلك، كانت النتيجة مرضية، والحمد لله، فقد حصلنا على موافقة المفوضية على قبولنا بشكل مبدئي إلى أن يتم توطيننا بشكل رسمي، وهذا يعني أننا منذ هذا اليوم قد أصبحنا في حكم من هم (وطن سز).

كنتُ أنا وعائلتي في الباص بالقرب من كزلاي، مركز عمورية، حين اتصل بي عابد ليطمأن على نتيجة المقابلة، فسأل متلهفًا ينتظر الإجابة:

ألو، السلام عليكم أبو فرحة، بشّرني!

السلام عليكم أخي عابد، أنهينا المقابلة وننتظر النتيجة، _ إن شاء الله _.

هل أعطوك الفسفورة؟ سأل عابد بسرعة خاطفة!

لا، أجبتُه ربما بسرعة أكبر.

يومها وصلنا متعبين إلى المنزل، فقد كنا صائمين؛ لأن الشهر كان شهر رمضان المبارك. وعلى الرغم من التعب والإعياء الذي كنا نشعر به جميعًا لكننا كنا مسرورين أننا أنجزنا أول مقابلة، ونأمل الخير في قابل أيامنا.

الفسفورة هي الحل الأوليّ أو الحقنة الأولى التي تقدّمها مفوضية المنفيّين لمن تجرى له أول مقابلة. وهي علامة توضع خلف الورقة التي تحمل صورة المتقدم لطلب المنفى والذي تتم مقابلته من قبل موظفي المنفى. وطبعًا هي تهيء المنفيّ لتحويل ملفه على اللجان المختلفة للهجرة، لكي يتم على أثرها تحديد موقف المنفيّ بعدها.

لم نكن نعلم أننا قد حصلنا على الفسفورة من أول جولة، لأن الموظفة التي قابلتنا، وقدمت لنا أوراق الحماية فيما بعد، لم تخبرنا أننا حصلنا عليها. فمرت أيام وأيام ونحن نتصور أننا لم نحصل عليها، على الرغم من أننا قد لاحظنا وجود شكل فسفوري في الجهة الأخرى من الورقة.

مرت أيام قبل أن يكتشف عابد، ومن خلال المنفيّين أيضًا، أن العلامة التي بظهر الورقة هي الفسفورة التي طالما حدثنا المنفيّون عنها. وهي تعني موافقة مفوضية المنفيّين على قبول حاملها كمنفيّ بشكل مبدئي لكنها لا تعني أن نهاية طريق الوطن سز قد تم تحديد خطواته النهائية بشكل نهائي، بل هي بداية طريق المنفى.

بدأنا نستفيد من الإنترنت في اتصالاتنا مع الأهل والأقارب. فقد تحدثتُ مع والدتي عبر الإنترنت، والتي كانت تقضي العطلة الصيفية، بعيدًا عن الأناضول، عند بيت أختي في اليوم التالي. وحدثتُها بالتفصيل عما جرى في المقابلة، فكانت كعادتها تتمنى لنا الخير وتدعو لنا بالتوفيق، وتقول دائمًا: ابني! _ إن شاء الله _ بما هو صالح لك ولعائلتك.

هيّأتْ لي هذه الكلمة التي كانت أمي تدعو لي دائمًا (بما هو صالح) مفاهيم مهمة في مجمل حركتي في الحياة. لطالما كانت أمي ترفض الحديث عما هو حلم، وتدعوه شيئًا غير واقعي. كانت تدعوني دائمًا للتفكير بشكل واقعي. وبصراحة أُضطررت إلى قطع شوط طويل من عمري قبل أن أصل إلى نتيجة مفادها ضرورة التفكير في إطار الواقع وقد مررت بالعديد من التجارب الإنسانية في علاقاتي الاجتماعية قبل أن أصل إلى أهمية هذا النمط من أنماط التفكير. ولا زلتُ أذكر أنني حدثتُ والدتي عن وصولي إلى هذا المنهج الواقعي في التفكير فقالت لي والدتي: لقد تأخرتَ خمس عشرة سنة في اكتشاف هذا المنهج الفكري، مع الأسف! وإن كان أحد نماذج المنهج المثلى للتفكير من وجهة نظر (علم الأمومة).

ولعل حوارنا هذا مع والدتي وأختي وفاء من خلال الإنترنت هو الذي شجع أختي على المضي في غربتها بعد أن كانت مترددة لما يقرب من عامين. صارت الآن أكثر حزمًا وإصرارًا على المضي في الطريق المذكور بعد أن لم يتبقَّ لديها هي الأخرى ما

يساعدها على البقاء على ما كانت عليه ولو من الناحية النفسية على الأقل. وقد اتفقت مع وفاء على اللقاء من وقت إلى آخر عبر الإنترنت حتى في حال عودة والدتي إلى دار السلام من أجل مباشرة وظيفتها هناك في قطاع التعليم. فمن شأن اللقاء المتكرر عبر الإنترنت أن يساعدني أنا وأختي على ما يمكن تسميته بالدعم النفسي، ويخفف من غلواء الغربة وشدتها. أما أمي فقد سبّب وجودي في الأناضول ووجود وفاء قرب المسرح الروماني في العاصمة الجبلية المزيد من الألم والمعاناة على فراقنا، لكنها كانت تقول على الدوام: سلامتكم أهم شي أولادي. وقد علمتُ من وفاء أن والدتي في بكاء متواصل على فراقنا، وخصوصًا ابنتي فرحة، لكن والدتي تداركت الأمر بسرعة حين وعدتني بأنه ستزورنا هنا في قرقّلا في أسرع وقت حالما تحصل على الفيزة من السفارة الأناضولية في دار السلام.

توطدت علاقتنا أيضًا ومن خلال الإنترنت بأم إبراهيم هذه المرأة الأصيلة والطيبة. تعرّفنا إليها من خلال أخيها زميلي في الجامعة في دار السلام الدكتور عبد القهار، وكان غالبًا ما يحدثنا عنها.

اتصلنا بها قبل أكثر من سنة من مجيئنا إلى الأناضول للاستفسار عن طبيعة الحياة في الغربة، كما أخبرنا أخوها د. عبد القهار. وقد نبّهني ذات مرة إلى أنه لم يكن ليعطي رقم هاتفها أو يخبر أحدًا بوجودها هناك إلا لمن يثق به. ونظرًا لثقته العالية بي واحترامه لي فقد قرّر مثل هذا القرار الصعب بالنسبة له.

كان كلامها مشجعًا جدًّا لما اتصلت بها زوجتي أم فرحة قبل ما يزيد على السنة. فقد أخبرتها أن العيش ممتاز جدًّا بالنظر إلى ما يقدم من مساعدات ومعونات للمنفيّين، وبالنظر للضمان الصحي الموجود هناك. فقد أخبرتنا ذات مرة أنها خضعت لعلاج في أسنانها بما يزيد على بضعة الآف من الدولارات فلم تدفع شيئاً لأن المبلغ كان

مدفوعاً سلفاً. شجعتنا في حينها على طلب المنفى، وكانت تقول: إن الوطن مثل الأم تستقبل أولادها مهما اغتربوا إذا عادوا إليها.

ظل الأمر في طي الكتمان فلم نخبر عنه أحدًا إلا الدكتور عبد القهار أخيها، فلم يكن من الداعي أن نخبر عنه أحدًا؛ لأننا كنا مترددين باتخاذ القرار حينها، لكن مقتل أبي أنس هو الذي شجعنا على اتخاذه فيما بعد.

اتصلت بنا أم إبراهيم في الأيام الأولى من وصولنا إلى قرقّلا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وقع اتصالها فينا موقع الماء البارد في جوف الظمآن الضال طريقه في صحراء قاحلة في يوم قائظ شديد الحر. أوصت أم إبراهيم زوجتي بأن لا نتردد، وأن لا تضعف همتنا، وأنها ستفعل ما بوسعها من أجل إتمام معاملة الكفالة لنا بالتوافق مع دائرة المنفى _ إن شاء الله _.

سهّل لنا الإنترنت الاتصال بأم إبراهيم من وقت لآخر. وفي كل مرة كنا نتصل بها أو تتصل بنا كان بقاؤنا هنا في قرقّلا يتجمّل بالأمل وبالصبر. ولم تكن هذه المرأة الطيبة هي الشخص الوحيد الذي سهّل لنا الإنترنت عملية الاتصال به، مع سهولة الاتصال ورخصه. بل سهّل لنا الاتصال بأخيها د. عبد القهار، وبصديقي د. براء، وهو مني بمنزلة الأخ، فأخوّتي به استمرت لأكثر من عقد من السنين، ولا زالت تتقوى بمرور الأيام بدلًا من أن تنتهي وتموت. وكان د. براء في كل اتصال يغذي نظرية الحالة النفسية للغربة بالمزيد من الشحن النفسي لتحمل عقبات الغربة والمنفى؛ لأنه كان يخبرني دائمًا بالأوضاع التي أخذت تسوء في الوطن يومًا بعد يوم بعد خروجي منه، الأمر الذي زاد من قناعتي بصحة الطريق الذي قررت المضي فيه، وبدقة التوقيت الذي ابتدأ به.

استمر تدفق المنفيّين على الأناضول عمومًا وعلى قرقّلا بشكل خاص بالتزامن مع تدهور الوضع الأمني في الوطن. وكان أبو ليث مع عائلته أحد الذي قدموا على قرقّلا بعد قدومنا بما يقرب من شهر. أبو ليث أحد المتضررين من تفاقم العنف في الوطن. فقد قتل الظلاميون بدم بارد أخاه في وضح النهار بعد أن كان يجوب شوارع دار السلام سائقًا لتاكسي من أجل أن يوفر لقمة العيش لأطفاله الصغار. فأُضطر للهرب بسبب هذا الحادث الأليم وبسبب خطف زوج أخته الذي لم يعثر عليه لحد الآن.

ناصر كان من ضمن القادمين إلى قرقّلا أيضًا. شاب طويل يبدو للناظر لأول وهلة أنه أكبر من عمره الحقيقي. لكنه بالرغم من التعب البادي على ملامح وجهه كان مدفوعًا بالأمل الكبير باللحاق بأخيه المغترب كما كان يحدثنا على الدوام حين نلتقيه بالقرب من الهيكل.

ضيغم، هو الآخر، كان أحد المنفيين الذي التقيتُهم وتكشّف لي من خلال لقائي به أن أحواله المادية ممتازة في دار السلام، فهو يمتلك معملًا كبيرًا فضلًا عن منزل فخم. لكنه بادر مسرعًا إلى التوضيح بأنه على الرغم من الخير العميم الذي يعيش فيه هناك لكن الأوضاع الأمنية السيئة التي يعيشها الوطن هي التي اضطرته إلى الهرب وتقديم طلب المنفى.

أبو مخلف منفيٌّ آخر التقيتُه مرة مع حسين، والذي عرّفني عليه. من القصص المثيرة التي قصّها علينا أبو مخلف قصته في مستشفى عمورية. فقد حدثنا أنه مصاب بمرض في القلب، وأنه أوشك ذات مرة على الموت وهو في عمورية فقرر الذهاب الى المستشفى. وبعد البدء بتلقي العلاج شعر بأنه يتعيّن عليه دفع مبلغ كبير لقاء علاجه. فقرر على عجل أن ينزع إبرة المغذي التي كانت في يده والهرب من المستشفى.

انتبهت إليه سكرتيرة القسم الذي كان يتلقى العلاج فيه فأغلقت الأبواب إليكترونيًّا، واتصلت بالطبيب المعالج بسرعة. قدم الطبيب بسرعة ومعه عدد من حرس المستشفى من أجل وضع حزام يربطه بالسرير؛ لكي لا يعاود محاولة الهروب مرة أخرى.

لم يكن أمام أبي مخلف إلا أن يتصل بصديقه الدكتور معتز أستاذ العلوم في الجامعات الأناضولية والذي يقيم في الأناضول منذ عام ١٩٨٢ م. قدم الدكتور معتز على عجل إلى المستشفى ليسأل عن السبب. وبعد الحديث مع أطباء المستشفى اكتشف أن المستشفى لم تكن تضمر أيَّ سوء له، بل على العكس، إنهم اتخذوا كل الإجراءات الاحترازية من أجل انقاذ حياته. وإنه لم يكن يخطر ببالهم أنهم سيأخذون منه أي مبلغ لقاء علاجه، بل إن كل شغلهم الشاغل كان العمل وبسرعة على شفائه وعلاجه، وأن علاجهم له هو مسألة إنسانية محضة. كانت هذه القصة هي إحدى القصص التي كشفت عن طيبة الشعب الأناضولي والذي شرعنا باكتشاف طيبته يومًا بعد يوم.

وهكذا استمر توالي الأيام حتى جاء شهر رمضان المبارك، وما أجمل قدومه! وهو شهر الطاعات والقربات إلى الله _ سبحانه _. كان الشهر الفضيل فرصة لمراجعة الذات والتفكير مليًّا بأوضاعنا هنا في الأناضول، وبالقرار المتعلق بالمستقبل! فالتفكير في الذات والحاضر والآتي ينجز الآن في الشهر المبارك في ظل أجواء روحانية. الصيام نهارًا والقيام ليلًا وقراءة القرآن الكريم وتلاوة أذكار الصباح والمساء. وبالطبع، لم ينقطع العمل العلمي خلال الصيام بل استمر في حدود الممكن بين التأليف والقراءة وتعلُّم اللغات الأجنبية.

وقد تغيّر منهاجي قليلًا في شهر رمضان من حيث طريقة العيش، ولقائي بالأخوة المنفيّين. فقد كان النهار يقضى ببرنامجي العلمي المعتاد، أو في الخروج إلى خارج

المنزل من أجل شراء الحاجيات واللوازم التي تحتاجها أم فرحة. أما لقائي بالمنفيّين فقد تغير منهاجه اليومي ليصبح بعد صلاة العشاء، بعد أن تعودنا جميعنا على اللقاء عند الهيكل.

شهر رمضان في قرّقلا كان له طابع خاص من ناحية طبائع وعادات الشعب الأناضولي. فقد بدأتُ ألحظ يومًا بعد يوم أن الأناضوليين أصحاب فطرة متدينة، وهم يعتزون جدًّا بانتمائهم إلى الإسلام، وهذا هو الطابع العام هنا في الأناضول. كانت المساجد تمتلئ بالمصلين في أوقات الصلاة اليومية، أما أيام الجُمَع حين تقام صلاة الجمعة، فقد كنتُ بالكاد أحصل على مكان من أجل أداء فرض الصلاة. كانت صلاة التراويح هي الصلاة التي استجد أداؤها في رمضان، وقد عمّرت هذه الصلاة المباركة المساجد بالرواد، وكانت فرصة للقاء بالأناضوليين وبعدد من الأخوة المنفيّين الذي كانوا يؤدونها في المسجد أيضًا.

وكان (المسحرجي)، أي: الشخص الذي يضرب الطبل ليوقظ الناس من أجل تناول السحور، أحد المشاهد القديمة المألوفة بالنسبة لنا في الوطن، والتي لاحظنا وجودها هنا في قرقّلا. يدق الطبل بعنف في حدود الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وكثيرًا ما كنا نستيقظ على صوت الطبل لنتسحر ونتهيأ لصيام يوم جديد.

استمر الإنترنت في دعم إنجازاتي العلمية، وفي اتصالاتنا بالأقارب والأصدقاء، وفي مشاهدة البرامج الرمضانية، ومتابعة أخبار الوطن التي تعودت على متابعتها منذ سنين طوال. فقد استفدنا منه في الاتصال بوالدتي وأختي وفاء قريبًا من المسرح الروماني. وقد أخبرنا والدتي بنيتها الذهاب إلى الوطن من أجل أن تنجز العديد من الأعمال هناك قبل أن تأتي إلى زيارتنا هنا في قرّقلا بحلول نهاية شهر رمضان المبارك.

وبالفعل، فقد غادرت والدتي بيت أختي متجهة إلى الوطن قبيل منتصف الشهر الفضيل. وكانت الأيام التي قضتها هناك صعبة عليها من الناحية النفسية لأنني وعائلتي لم نكن قريبين منها. لكنها تسلّحت بالصبر، وبقضاء الوقت مع عائلة أم محمد جارتنا القديمة، والتي لم تدخر وسعًا في التخفيف عن معاناة والدتي هناك. كان وجود والدتي في دار السلام فرصة بالنسبة لنا من أجل توصيتها بجلب العديد من الحاجيات التي كنا في حاجة ماسة لبعضها.

-٣-

وأقبل عيد الفطر المبارك وجاء معه العيد الآخر، عيد وصول والدتي إلينا هنا في الأناضول مرة أخرى بعد فراق دام شهرين. استمرت الاتصالات بيني وبين والدتي طيلة بقائها في الوطن. وقد خرجت من الوطن قادمة بباص تابع لإحدى الشركات الأناضولية التي تعد أفضل من الشركة التي قدمنا بها إلى الأناضول أول مرة.

ذهبت ضحوة يوم الأول من شهر شوال مسرعًا إلى عمورية من أجل استقبال والدتي في أوتو غار آشتي، والتي وصلت إلى هناك في الساعة الثانية من ظهر اليوم نفسه. لم أتمالك نفسي من شدة الفرح بلقاء أمي من جديد، وأنا الذي لم أتعود على فراقها من قبل. عانقتها بشدة مقبّلًا إياها، فيما أخذت الدموع تتسلل خارجة من عيني كانسياب قطرات المطر بالتدريج.

أقبلت أمي ومعها خيرات الوطن؛ فقد جلبت لنا العديد من اللوازم والحاجيات التي كنا بحاجة لها. وقد جلبت كتابي الذي صدر مؤخرًا في دار السلام، بينما كنا هنا في قرقّلا، وقد كانت سعادتي بالغة برؤية الكتاب من عدة نواحي، فقد سعدتُ بالإخراج الأنيق الذي ظهر به الكتاب، ولأنه تضمن العديد من القصائد النثرية التي أنجزتُها على مدار خمسة عشر عامًا، ومن ثم فهو أول ديوان لي.

وبينما كنتُ أقلّب أوراق الكتاب في طريق عودتنا إلى قرقّلا من عمورية، كنتُ أتأمل الإمكانات الموجودة في الوطن. فالكتاب قد طبعتُه على نفقتي الخاصة، وبالطبع كان لديّ الإمكانية المادية لطبع كتبي على حسابي الخاص أيام، وهذا ما أفتقده هنا

في المنفى، فما لدينا من مال يكفي لسد احتياجاتنا الأصلية من سكن وغذاء فقط، وبالتالي، فليس لديّ القدرة المالية الآن لطبع كتبي على حسابي.

وفي الوطن، كنتُ قد طوّرتُ إحدى نظرياتي المهمة وملخصها أن الوطن بالرغم من سوء الأوضاع فيه من كل النواحي، لكن إذا نظرنا إليه من زاوية الرؤية المتدينة الشاملة فإنه قد يوفر جوانب من الحرية التي قد لا تتوفر في أي مكان آخر، ومنها طبع كتبي على حسابي الخاص. أي: أن هنالك هامش من الحرية في الوطن غير موجود في بلدان آخرى، وهذا ما بدأتُ أدركه مع مرور الزمن.

لكن الذي يعزّيني في مشواري في المنفى هو نظرية أخرى كنتُ قد طوّرتُها في الوطن أيضًا، وهي نظرية (جميع الحقوق محفوظة للناشر). فإذا كان لديّ المال في الوطن ما يكفي من أجل أن اطبع كتبي على حسابي الخاص، فأنا بإمكاني في المنفى بيع حقوق نشر كتبي بشكل كامل إلى الناشر، وهو ما يرغب به الكثير من الناشرين من أجل الانتفاع بشكل كبير من مبيعات الكتاب. وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تحمل نوعًا من الغبن والحيف بالنسبة للمؤلف، لكنها من ناحية أخرى توفر للمؤلف فرصة نشر كتابه.

وإن كنتُ في أحد الأيام القلائل قبل قدوم والدتي قد توصلتُ إلى حل إستراتيجي بالنسبة لي، حينما اكتشفتُ أن الكثير من الناشرين ينشرون الكتب الإليكترونية على شبكة الإنترنت بشكل مجاني، وهم يقومون بعلميات تصفيف الكتاب وترتيبه. وهذا بالطبع حل مهم جدًّا، لأنه سيخلّصني بالتأكيد من الفخاخ التي ينصبها الناشرون للمؤلفين، كما أنني أتوقّع أن يكون المستقبل بالنسبة لعالم النشر هو للنشر الإليكتروني وليس للورقي، وهذا ما سيوفر أبعادًا إضافية مهمة جدًّا في مجال التخطيط للمستقبل.

استقبلت زوجتي أم فرحة والدتي بالعناق والبكاء لما وصلنا إلى البيت، أما فرحة فلم تتمالك نفسها بل شرعت تركض حافية إلى الشارع لاستقبال جدتها. وأخذنا في تفريغ الحقائب من كل الخيرات التي جلبتها والدتي من الوطن. أخذنا بتبادل الحديث مع والدتي إلى حين غربت الشمس، فخرجنا بعدها من أجل الاتصال بأختي وفاء، رغبة في مباركتها بمناسبة العيد. وبعدها اتجهنا إلى واحدة من الحدائق الجميلة في قرقّلا حيث التقينا بالعديد من العوائل المنفية، مباركين لهم قدوم العيد، ومتمنين لهم أيامًا سعيدة.

كنتُ قد خططتُ قبل قدوم والدتي لاصطحابها في جولة في قرقّلا، وكانت منطقة باهشلي في مقدمة القائمة المقترحة. (باهشلي بارك) واحدة من أجمل الأماكن التي رأيتُها في حياتي، وهي تشبه إلى حد كبير مرتفعات الجبال الشاهقة في بكسا الشامية، والتي سكنتُ فيها أنا وعائلتي قبل أربعة أعوام. المهم، أن أم فرحة قد أوصتني بجلب العديد من اللوازم والاحتياجات الخاصة بالسفرة الى بهاشلي، والتي غادرنا إليها في الصباح، وقضينا فيها وقتًا جميلًا جدًّا، بحيث إننا لم نعُد يومها إلا وقد اقتربت الشمس من المغيب.

في صباح اليوم التالي، ذهبت أنا والغالية أمي إلى سوق السبت الأسبوعي، وهو يتمتع بمواصفات لا يتمتع بها سوق الأربعاء. فهو سوق مسقّف بسقوف حديثة جدًّا، ويعدُّ إحدى الإنجازات التي تفخر بها بلدية قرقّلا، كما أنه يمتاز برخص أسعار الخضر والفواكه فيه إذا ما قورن حتى مع سوق الأربعاء، وبالطبع لم يكن مقارنة رخص الأسعار حتى مع مثيلتها في الوطن، وقد خرجنا أنا ووالدتي من السوق بعد أن تسوقنا كل ما نحتاج، متجهين إلى البيت ونحن نحمد الله _ سبحانه _ على نعمه، ومن ثم نشكر

الشعب الأناضولي الذي وفّر لنا طيب الإقامة بكرامة في هذا البلد العزيز، والذي ندعو له بدوام الازدهار والتقدم والرخاء.

استمرت جولاتنا الاستكشافية أنا ووالدتي يومًا بعد يوم في قرقّلا. وقد أدت هذه الجولات المكوكية دورًا كبيرًا في التخفيف من حدة الغربة، لأنني كنت أتجول في المدينة هذه المرة بشكل مغاير! لقد أنفقتُ عمري كله تقريبًا في صحبة والدتي والتي مارستْ طيلة حياتي دورًا محوريًّا في امتصاص الشدائد والأزمات التي مررتُ بها خلال مسيرتي الوجودية والإنسانية. ويبدو أنني على الدوام، وفي مجال علاقتي بوالدتي كنتُ أسير ضد المثل الوطني السائد (ابن أمه)، فالمنفيّون إذا أرادوا أن يعيّروا شخصًا أو ينتقصوا من قيمته الفحولية لقبوه بـ(ابن أمه). ولا بد أن أطلقها صرخة مدوية: نعم يا أيها العالم (أنا ابن أمي)، وأنا مدين كل الدين لوالدتي بما حققتُ وأنجزتُ في حياتي. والدتي التي ضحت بكل شيء من أجلي أنا وأخوتي، وأفنت عمرها من أجلنا، ولم تدخر جهدًا أو وسعًا لكي نتقدم في مجالات الدراسة والعمل، وكانت دائمًا تقول لنا: أنتم، أولادي الشيء الوحيد الذي خرجت به من هذه الدنيا.

والدتي تمتلك ما أسميه منذ زمن (مقياس رختر للصدمات المتعلقة بالأولاد). فلطالما لمستُ من والدتي دقة النصائح فيما يتعلق بالمستقبل واتخاذ القرارات الصائبة تجاهه. وقد كنتُ أتعجب دائمًا من دقة النصائح التي كانت تسديها لي ولأخوتي. ومن خلال الاستقراء التام لمعظم النصائح التي طرحتْها أمي فقد تبيّن لي أنها دائمًا تختار الأسهل لنا، والذي يتمتع بمواصفات عالية من ناحية الضمانات التي يقدمها. (الأسهل والأضمن) هو المقياس الذي تبيّن لي فيما بعد أن (مقياس رختر) في قلب والدتي هو الذي يؤشره بشكل دائم، وخصوصًا في أوقات الازمات. وبالطبع فإنها تشترط أن يكون

هذا الأسهل والأضمن منسجمًا مع شرع الله _ سبحانه _، فإذا خالف الشرع الحنيف فهي ترفضه بكل حزم.

وللأسف يبدو لي أن الفلسفة لم تلتفت إلى الآن إلى الأهمية القصوى التي تتمتع بها الأم بالنسبة للكائنات، ولم تشتغل على تطوير علم يعمل على تكثيف التأملات العقلية والتحليلات الاجتماعية حول الدور المحوري الذي قدمتْه الأم خصوصًا والوالدين عمومًا إلى الانسانية عبر تأريخها الطويل.

كان من ضمن الأماكن التي رأتها والدتي في جولتها معي دائرة النفوس في قرقّلا. فبعد جهد جهيد، وبعد أن قدّم مختار محلة أوفاجك لرؤية منزلنا وحساب عدد أفراد العائلة، اتصل بمدير قسم النفوس في المدينة والذي بدوره أمر أحد الموظفين فيها بإجراء تسجيلي في النفوس أنا وعائلتي. وقد كنتُ أجريتُ محاولة منذ منتصف شهر رمضان من أجل إنجازها، لكنني لم أتمكّن حينها من إنجازها بسبب وجود خطأ في العنوان الذي قدمته إلى دائرة النفوس، لكن تم تصحيح الخطأ بعد أن قدم المختار واحتسب الشقق الموجودة في العمارة.

استثمرت فرصة قدوم والدتي للتقليل من ذهابي إلى الهيكل، وقد كنتُ راغبًا في ذلك من قبل، ولكن مجيء والدتي إلى قرقّلا وفّر لي العذر أمام جماعة الهيكل للبقاء في البيت. بدأتُ ألحظ مع مرور الزمن ما أسميه بـ(تفكّك مجتمع الهيكل للمنفيّين). فسرعان ما بدأت المشاكل والصراعات المصلحية تتسلل إلى المنفيّين الذين يلتقون عند الهيكل، وقد كانت نظرية المؤامرة مطروحة بشكل كبير، بل كانت هي الخميرة التي تغذّي الصراع وترفع من مستوياته.

لا زلتُ أفكر، بعد جملة من الأبحاث التي أنجزتُها في مجال الأبحاث المتعلقة بالوطن، أن الانسان أمر محير، وهو أقرب إلى اللغز، بسبب حدة التناقضات الموجودة

في شخصيته. لكنني توصلت إلى نتائج مذهلة في مجال تحليل الشخصية، ومن أهمها أنني أعتقد الآن أن الإنسان عاطفي، وهو يفكر بقلبه لا بعقله. وربما يعود سبب هذا النمط من أنماط التفكير إلى طبيعة المناخ، فهو حار جدًّا في الصيف، ويبلغ ذروته في شهري تموز وآب، وفيها يكون الإنسان في أوج عنفوانه ومزاجه الحاد. ولعل هذه الملاحظة يمكن أن تفسر سبب قيام معظم الثورات في فصل الصيف. أما الشتاء الوطني فهو شتاء صحراوي، إذا صحت التسمية، وغالبًا ما يؤكد المنفيّون أن برد الشتاء يدخل إلى العظام، فيقولون لمن أصيب بالإنفلوانزا الشديدة أنه مصاب بإنفلوانزا في العظم. وفي هذا الفصل يكون الإنسان منكفأً على نفسه، ومتدثرًا بدثار حيث يتدفأ قرب الموقد.

الإنسان في الوطن عاطفي أكثر منه عقلاني، ويمكن اكتشاف هذه المقاربة في التناقض الموجود في الشخصية الإنسانية من خلال فهم الأمثال الوطنية ذاتها. وكنتُ قد توصّلتُ إلى هذه المقاربة التحليلية في حواراتي مع المهندس أحمد في جلساتنا الحوارية الصاخبة أيام كنا سوية في دار السلام (للأسف لم نعد نلتقي كما كنا في السابق، لأنه مشغول بإنجاز أطروحته للدكتوراه في تخصص الهندسة الإليكترونية في هوكايدو لكن حبي الأخوي له لم يتغير على الرغم من بعد المسافات بيننا). اكتشفتُ في الحوارات المذكورة أن الإنسان له طابع مزدوج من ناحية الشخصية يكشف عنه المثل الوطني: (آني ضد ابن عمي، وآني وابن عمي على الغريب)، وهذا المثل يكشف عن أنا متعالية أنانية ضاربة بأطنابها في عمق الذات الإنسانية، فالأنا قبل الآخر، ولو كان ابن العم. في حين يقول المثل المضاد: (شيمه واخذ عباته)، ويعني: امدحه، أطره، وسيعطك كل شيء حتى العباءة التي يرتديها. والشخصية الإنسانية بموجب التحليلات الأخيرة تتقلب بين هذين النموذجين، أي: (نموذج الأنا المتعالي)، و(نموذج

الفحولة المأخوذة بالمدح والتزلف)، لكن على أن يتم الاخذ بالحسبان أن لا يتم تعميم هذا التحليل على كل المنفيّين، بل أن يؤخذ القياس بموجب العينة الواقعية المنظورة.

لاحظتُ وأنا أرقب التفكك اليومي لمجتمع الهيكل الوطني في قرقّلا أن هنالك نموذج ما حتى وإن اختلف معه الزمان والمكان والأشخاص، بمعنى أنه باحث لا يكل ولا يمل عن مصلحته الذاتية، حتى وإن تقاطعت مع مصالح الآخرين. ولكونه الباحث الذي لا يكل عن المصلحة الشخصية والانانية فهو يضطر لإجراء تحالفات مرحلية (سرعان ما تتفكك هذه المصالح تحت وطأة صراع المصالح غير العقلاني مع تحالفات أخرى، أو مع زملائه في التحالف ذاته) من أجل المحافظة على مصالحه الشخصية.

بدأتُ في قرقّلا أدرك أن الأنا والذاتية الإنسانية المتفردة المفتاح لفهم الكثير من أسرار وانغلاقات الشخصية. ولعله المدخل العقلاني والاجتماعي والنفسي لفهم سبب الفوضى من أقدم العصور إلى اليوم. التحالفات التاريخية المدفوعة بمصالح ذاتية أنانية ضيقة هي السر في فهم الصراع الداخلي تاريخيًّا إلى اليوم.

وطبعًا، ليس من السهل تجاوز الصراع المصلحي المغلف بأُطُر تاريخية ظاهرية إلا من خلال تعميق قيم التسامح الديني والعقلانية النقدية. على الإنسان أن يدرك ضرورة أن مصلحته الذاتية ليست بلا حدود، بل هي مرتبطة بمصلحة الآخر، ومصلحة الوطن العليا، وأن حريته تنتهي في حدود الدين والعقل والقانون والعدالة والمساواة والمصلحة الاجتماعية الخاصة والعامة. على الإنسان أن يفسح المجال بشكل أكبر لما أسميه (بالفعالية الفردية والاجتماعية)؛ ففي الوقت الذي يتعيّن فيه احترام الحقوق الأساسية للمواطن بشكل متساوٍ مع كل المواطنين الآخرين، لا بد، من ناحية أخرى تقديم كل الدعم للدولة وللفضاء الاجتماعي العام من أجل النهوض والارتكاز على قاعدة اجتماعية متينة. وهذا يعني من جهة ثالثة، أنه لا بد من مصالحة عميقة بين

الإنسان وذاته، ومع الإنسان الآخر شريكه في الوطن، وبينهما وبين الفضاء الاجتماعي العام من أجل تحقيق نهضة وطنية حقيقية.

وللأسف، لا تحتل الحكمة، الحكمة الاسلامية أعني، المكانة المرجوة في عملية الإصلاح الفردي والاجتماعي الشامل. لقد كانت دار السلام في عصرها الذهبي تتمتع بازدهار واحدة من أكبر المدارس العلمية والمعرفية في تاريخ الإنسانية. يتعين الآن فسح المجال أمام الحكمة للمساهمة في عملية الإصلاح الوطني الشاملة كما هو الحال بالنسبة للأمم الآخرى التي تعد الحكمة الاسلامية فيها في طليعة العلوم التي تفتخر بتقديمها للإنسانية.

هذه الحكمة التي لا بد من القول إنها تعينني على التوفيق بين مجمل الصراعات الوطنية التي واجهتُها سواء عندما كنتُ في الوطن، أو حين أصبحتُ بلا وطن، أي وطن سز هنا في قرقّلا، والخروج من دهليز تفكك مجتمع الهيكل للتوفيق بين مجمل التحالفات الوطنية القائمة، وصولًا إلى تحقيق مصلحتي الذاتية الخاصة ومصلحة التحالفات المختلفة بالرغم من صراعاتها المصلحية المتنوعة.

ناقشتُ هذا التفكك بشكل دائم مع أم فرحة، ومع والدتي في الأيام التي قضتها هنا معنا في قرقّلا. وبالطبع، تلقيتُ الكثير من النصائح المهمة التي قدّمها لي علم الأمومة والتي ساعدتني أيضًا وبشكل كبير على الخروج من نفق الصراع المصلحي المفكك لمجتمع الهيكل في قرقّلا.

لم تدم الفرحة طويلًا، فقد حددت والدتي موعد مغادرتها إلى الوطن بسبب ارتباطها بالتدريس في دار السلام. وقد كانت الأيام التي أعقبت تحديد موعد السفر إلى الوطن كئيبة بالنسبة لنا؛ لأنها تعني انتظار المزيد من الأيام والأشهر قبل رؤية

أمي من جديد. وكثيرًا ما رأيت أمي تبكي خلال الأيام التي سبقت رحيلها إلى الوطن، فقد كانت تأخذ ابنتي فرحة بالأحضان، وتقول:

ابنتي فرحة، أريد أن أشتمك، (تشتم جسدها)، ثم تبكي، وتعقّب بصوت مليء بالحزن: الله لا يوفق من كان السبب في فراقي عنكم. الله لا يوفقهم في الدنيا والآخرة من كانوا سبب كل هذه المعاناة والآلام.

أما أنا فقد كنتُ على الدوام أحاول كتمان مشاعري، لكي لا تشعر أمي بحجم الألم في داخلي بسبب كل شيء يرتبط بطريق المنفى، وكنتُ أظهر سعادتي أمامها، وأطلب منها الدعاء بقرب الخلاص _ إن شاء الله _ من الوضع الاستثنائي الذي أمرّ به أنا وعائلتي. لكن في الوقت نفسه كنتُ راغبًا بتعلم المزيد من أسرار علم الأمومة في مجالاته المختلفة المرتبطة بالزمان والمكان والجدل والثقافة، وكنتُ أحدث الحبيبة أمي كاشفًا عن بعض تحليلاتي حول علم الأم:

أمي، حبيبتي! (مقبّلًا، معانِقًا): ما أروعك، ما أبلغك! طوّل الله في عمرك، وأعطاك الصحة والعافية، ليتني أشم عطر أمومتك كل يوم، وأنهل من علم قلبك المتعلق بنا نحن أولادك.

ولم تزد أمي قول شيء إلا ما كانت تعبر عنه بالدموع واحتباس العبرات.

تحدّد سفر والدتي إلى دار السلام يوم الإثنين، وبالطبع كان يتعيّن علي إيصالها إلى أوتو غار آشتي في عمورية من أجل أن تستقل الباص الذي سيأخذها إلى الوطن. وفي اليوم المذكور، استيقظنا فجرًا، وقد ودّعتْ والدتي أم فرحة، وتعانقا، وأخذتا بالبكاء. أما فرحة، فقد كانت نائمة، فلم تستيقظ لوداع جدتها، والتي بادرت من جهتها بتقبيلها وهي نائمة.

ركبنا القطار المتجه من قرقّلا إلى عمورية، وكانت هذه هي إحدى المرات النادرة في حياة والدتي بخصوص ركوب القطار. وقد كنتُ سعيدًا في قرارة نفسي أنني كنتُ أحقق لوالدتي بعض ما يسعدها، على الرغم من الفراق الذي ترك حزنًا أعمق في قلب ومشاعر والدتي.

كنتُ قد خططتُ ليوم رحيل والدتي قبل أيام. ومن أجل الاقتصاد في الإنفاق فقد كنتُ أرتّب للذهاب إلى مبنى مفوضية المنفيّين في عمورية في اليوم ذاته الذي ستعود فيه والدتي إلى دار السلام انطلاقًا من أوتو غار آشتي. وصلنا مبكرين إلى مفوضية المنفيّين قبل موعد استقبالها لطلبات المنفيّين بساعة تقريبًا. بدأت أستمع عن كثير من الإشاعات من المنفيّين الموجودين قرب المبنى عن احتمالية فتح فرص أخرى أبوابها لاستقبال المنفيّين وغير ذلك من الإشاعات.

ولما جاء دوري بمقابلة موظفة الاستعلامات سلّمتها بعض المستمسكات المطلوبة الناقصة من ملفي، والتي أحضرتْها لي والدتي من الوطن. وسألتُها عن سبب تأخر ظهور النتيجة إلى الآن مع العلم أنه قد مر أكثر من شهر على المقابلة التي أجريت لي أنا وعائلتي في مبنى المنفيّين.

قالت موظفة الاستقبال: ملفك بانتظار التأكد من تقديمك طلب آخر المنفى في مكان آخر من عدمه.

فأجبتُها: لكن، أختي، أنا لم أقدم طلب المنفى سابقًا في أي مكان آخر، وقد أكدتُ ذلك لكم في المقابلة.

قالت، بأسلوب فيه حدة بعض الشيء: نحن لا نستقي المعلومات منك، بل من مكاتبنا في دول العالم المختلفة.

وسألتُها: كم يتعيّن عليّ أن أصبر حتى أعرف النتيجة.

فأجابت، وهي تريد أن تصرفني بسرعة: ستنتظر مدة غير معلومة.

وقع جوابها عليّ موقع الصاعقة، فمع مورد مادي محدود هو كل ما تبقّى لدينا من مدخرات الوطن، ومع منع القانون هنا في الأناضول المنفى من العمل إلا في حالات استثنائية، ومع عائلة أنا حريص على راحتها، هي عائلتي، زوجتي وابنتي، ومع مستقبل مجهول لا ندري كيف سيتم حسمه، ومع مستقبلٍ علميّ أرجوه وأنا حريص عليه منذ نعومة أظفاري، وقبل ذلك مع وجود والدة مفارقة لفلذة كبدها، وقد زاد عمرها على الستين، وهي تعدّ الأيام من أجل أن أصل إلى بر الأمان، كما كانت تقول، يصبح أي انتظار ليس له داعٍ، أو أي خطأ في ملف المنفى كجمرات أحملها في يدي وأنا أسير في طريق طويل حافيًا، وقد نُثر الزجاج المتكسر على ذلك الطريق.

شرعت أمي في القلق والحزن لمّا سمعت الخبر مني ونحن في طريقنا إلى أوتو غار آشتي. ولم نترك النقاش أنا ووالدتي في الموضوع إلا والدموع تملأ عيني وأنا ألوّح لأمي بيدي مودعًا وقد أخذت السيارة التي تقلها إلى الوطن بالابتعاد.

لم أصل إلى البيت يومها إلا في حدود الساعة التاسعة مساءً، ولم أهدأ من الصراع النفسي الذي كان يغلي في داخلي إلا بعد أن استسلمت للنوم مباشرة من شدة الإعياء الذي استبدّ بي.

بدأتُ، بمرور الزمن، أقارن بين النعم العظيمة التي حباها الله _ سبحانه وتعالى _ للوطن في كل المجالات، من الثروة النفطية إلى المعادن الختلفة، ومياه الأنهار التي نشأت على ضفافها حضارات رافدية تاريخية موغلة في القدم، والإنسان الذي علم البشرية أحرف الكتابة الأولى بالرغم من وثنيته التي تعكس انحطاطه الديني في مقابل التوحيد العظيم الذي جاء به الإسلام فيما بعد، والتنوع البيئي والمناخي الذي يفسح المجال أمام نشوء أفضل الأنظمة السياحية في العالم، وغير ذلك الكثير الكثير مما

يمكن أن يكتب ويحكى عن خيرات الوطن. بدأت أقارن ذلك الخير الوفير الذي خلفّه المنفيّون خلف ظهورهم وبين الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يعيشها المنفيّون. وكنتُ دائمًا أحاول تشغيل العقل التحليلي من أجل تقديم المزيد من التحليلات العقلانية حول الأسباب العميقة الكامنة وراء تردي الأوضاع في الوطن إلى هذا الحد، وفي كل المجالات. واكتشفتُ أنها أسباب داخلية وخارجية، جذرية وعرضية، تاريخية ومعاصرة، علمية وحكمية وانسانية، وغير ذلك الكثير مما هو كامن في القلب...!

لم يكن وضعي الاقتصادي بأفضل من أحوال المنفيّين ولذلك كنتُ مضطرًا إلى سلوك العديد من الإجراءات الاقتصادية (القانونية طبعًا) التي كانوا يستخدمونها. كانت الجمعيات والمؤسسات الخيرية الأناضولية الرسمية وغير الرسمية فضلًا عن طيبة الشعب الأناضولي بحد ذاتها هي المصدر لتسلم المنفيّين المعونات والمساعدات.

من وقت إلى آخر، كان الأخ عابد هو مصدر المعلومات بالنسبة لي خصوصًا فيما يتعلق بالمؤسسات الخيرية الأناضولية (السوسيال). وكانت إحدى هذه السوسيالات هي السوسيال التابع للأوقاف في قرقّلا. سجّلت عليه كبقية المنفيّين على أمل استلام خمسمائة ليرة أناضولية منه. وكم كان اليوم الذي تسلّمت المبلغ فيه من السوسيال سعيدًا بالنسبة لي ولبقية المنفيّين. كان من شأن المبلغ المذكور أن يعيننا في تغطية تكاليف الإيجار وفواتير الماء والكهرباء لمدة شهر واحد فقط!

حاولنا يومها أنا وعابد وفارس أن نحصل على المزيد من المكاسب من سوسيال الأوقاف، فطلبنا مقابلة المدير حلمي بيك. قابلنا الرجل بطيبة الشعب الأناضولي المعهودة، فشكونا له حالنا الاقتصادي الصعب، فقال:

بإمكاننا تقديم مساعدات إضافية لكم متمثلة بعدد من السجاد المستعمل.

قلنا كلنا بصوت واحد: نعم من فضلك، نحن بحاجة له.

كانت حصتي من قطع السجاد اثنتين، وقد سعدت زوجتي أم فرحة لما رأتهما، فقد فرشنا البيت، وتبقى القليل منه لم يفرش، على أمل أن يكمل فرشه فيما بعد.

كان الحاج مريد أحد مصادر المساعدات القليلة التي تلقيناها من الشعب الأناضولي. الحاج مريد هو مدير أحد الجمعيات الخيرية الأهلية، وقد ذهبتُ إليه ذات مرة مع سعد، وقيّد أسماءنا لديه في سجل خاص.

اتصل بي عابد وفارس وأخبراني أن الحاج مريد قد وصلته شحنة من الملابس الجديدة والمستعملة، وأنه يتعيّن علي الذهاب من أجل جلب ما احتاج منه. ذهبت على الفور لأبلغ سعد بالخبر، فوجدتُه واقفًا أمام منزله مع عدد من الأناضوليين جيرانه. فحدثتُه بالخبر، وذهبنا على عجل، لا نلوي على شيء إلا إدراك شحنة الملابس بأقصى سرعة ممكنة.

دخلنا إلى السوسيال، وسلّمنا على الحاج مريد، وسألناه عن إمكانية استلام ما نحتاج من شحنة الملابس، فوافق الرجل، وبدأنا ننتقي أنا وسعد ما نحتاج إليه، حتى إذا انتهينا، كان ما حصلّه كل منا كمية لا بأس بها. وبالطبع، كان الأمر كالعادة مبهجًا لأم فرحة، التي أخذت بتقليب قطع الملابس الواحد تلو الآخر.

أحسستُ يومًا بعد يوم بطيبة الشعب الأناضولي الفائقة، واحترامه للغريب والمنفيّ والمنفى، وتقديم كل الدعم اللازم له. وقد تطورت هذه الاحاسيس يومًا بعد يوم، ومن خلال احتكاكي بالشعب الأناضولي. هذا الاحتكاك الذي جعلني أطرح على نفسي سؤالًا مفاهيميّصا، وهو: ماذا يعني الاحتكاك باللغة؟ فقد وجدتُ أن الاحتكاك اليومي باللغة لا يعني فقط فهم اللغة بحد ذاتها والتعمق في مفرداتها وتراكيبها وجملها ومدلولاتها، بل هو يعني التوغل في فهم ثقافة الشعب الذي يتكلم بها، وفهم طبيعة الإنسان الناطق بتلك اللغة، وفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة، بحيث يعد كل

ذلك مَدخلًا لفهم العلاقات التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة.

كنتُ أحلل هذه العلاقات اللغوية الانسانية الاجتماعية وأنا أحثّ الخطى مسرعًا مرات عديدة في الذهاب إلى المستشفى. مستشفى قرقّلا التعليمي مثلًا الذي يبعد عن منزلنا عشر دقائق مشيًا على الأقدام. صارت لديّ خبرة بموضوع المستشفى في الأناضول لأنني ذهبت إليه مرات عديدة. فقد ذهبتُ أول مرة، وبالتحديد إلى المستشفى الاختصاصي في قرقّلا، والذي يقع بالقرب من أوتو غار قرقّلا بعد أيام من استلامي (الكملك) أو دفتر الإقامة، حيث أخذتُ زوجتي إلى هناك، لأنها كانت تعاني من مرض في المعدة. وتمت معالجتها بشكل سريع في قسم الطوارئ (يسمى العاجل) هنا في المستشفى لأن اليوم الذي ذهبنا فيه كان يوم السبت. ثم تكرر ذهابي إلى المستشفى مرات ومرات، وكنتُ في كل مرة اكتسب المزيد من الفهم لطبيعة العلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التي تسود في المجتمع الأناضولي. وبهذه الطريقة، توصّلتُ إلى نتيجة رئيسية مفادها: إن الشعب الأناضولي طيب!

حاولتُ بعد الوصول إلى هذه النتيجة الكلية أن أوظّف العديد من النظريات العقلانية التي توصّلتُ إليها في الوطن من أجل تطوير علاقاتي الاجتماعية مع الأناضوليين. (للأسف هذه العلاقات لا تتطور بشكل سريع، والسبب ليس في الأناضوليين، بل فيّ؛ لأنني انطوائي نوعًا ما، وأحب الجلوس في البيت لا لشيء، بل لإنجاز أعمالي الفكرية والعلمية، مدعومة بالإنترنت فائق السرعة الذي حصلتُ عليه، كما ذكرت). مع العلم أن سعدًا كان يلح عليّ باستمرار من أجل تطوير علاقاتي الاجتماعية بالناس هنا لأنهم شعب طيب، ولأن ذلك سيساعدني كثيرًا في تذليل الصعوبات التي من الممكن أن تواجهني هنا في الأناضول.

لكن بالرغم من كل العلاقات الاجتماعية الوطنية والأناضولية كانت هنالك علاقة اجتماعية قد اتخذت لها مكانًا خاصًّا في القلب، تلك هي العلاقة الاجتماعية التي تربطني بأسرتي الصغيرة، أي: بزوجتي وابنتي.

لطاما نظرتُ إليهما، وخصوصًا هنا في الغربة، على أنهما كائنات هبطت عليّ من سطح القمر، وأنهما بجمال القمر وبحلاوة الشمس. كائنات أسميها دائمًا بالكائنات القرمزية، وهنا أنا لا أقصد اللون، بل أقصد الألفة الموجودة فيه، فهو لون أليف ويحمل كل مدلولات البراءة والألفة ومعانيها. أنظر إليهما كقطتين جميلتين يتعيّن عليّ أن ألبي لهما كل متطلباتهما، فليس لهما في الغربة أحد بعد الله _ سبحانه _ إلا أنا!

زوجتي أم فرحة، أناديها في البيت على الاغلب (توتو) تحبُّبًا، ولا حدود للحب الذي يكنه قلبي لها، إن حبي لها كالبحر الذي لا ساحل له. هي كالنسمة في البيت، مريحة إلى درجة الذهول، وغالبًا ما أقول لها: إنك قد هيأتِ لي بيتًا كبيوت العلماء من شدة الهدوء الذي عليه بيتي، والحمد لله. وقفت إلى جانبي في كل الشدائد التي مرت بي بعد زواجنا، ولم تدخر جهدًا ولا وسعًا في توفير كل متطلبات الراحة والهدوء لي. ساكنة سكون الجبل، وادعة كجدول ينساب بهدوء من الأعالي، يملأ قلبها الحنان والرقة، وهي تبكي وتتألم إذ يمر بها أي موقف إنساني، يستدعي البكاء، فيبكينا سوية.

اختارت أن تكون إلى جانبي حيثما أكون، وفارقت الأهل لأجلي، ورضيت أن ترحل معي إلى آخر الدنيا، وكانت تقول لي دائمًا، حينما أشعر بحزن شديد عليها لأنها بعيدة عن أهلها وصديقاتها:

أبو فرحة: هكذا تعلّمتُ من والدتي، الزوجة يجب أن تكون مع زوجها أينما ذهب.

بوركتِ، وبورك علم الأمومة الذي تعلّمتِه من والدتك، ولو كانت كل نساء الأرض مثلك لما حدث الخلاف والشقاق بين الأزواج، ولما انهارت الأُسَر على رؤوس أصحابها.

أم فرحة كائن عجيب بالنسبة لي، بدأت أسبر أغوار شخصيتها يومًا بعد يوم بعد زواجنا. كائن عقلاني وعاطفي في الوقت نفسه، تمنح العقل جانبًا مهمًّا في طريقة تفكيرها، وتفسح المجال للعاطفة حين تكون العاطفة هي الوضع المناسب في الزمان والمكان المناسب. وأتذكر أنني، وبعد وصولنا إلى قرقّلا بوقت قليل، دخلتُ إلى المنزل ورأيتُها صامتة، ولاحظتُ أن في عينيها حزنًا عميقًا، وكنتُ أحس أنها كانت تبكي بشدة في غيابي، لكنها لم تصارحني بالأمر إلا بعد مرور أيام وأيام! ولما سألتُها عن السبب، بيّنت لي أنها لا تريد أن تزيديني حزنًا على حزني ولا تعبًا على تعبي.

هل يمكن أن أقول أنني في نعمة عظيمة من نعم الله _ سبحانه _ عليّ؟ نعم، يمكنني أن أؤكد ذلك، فمن كان في بيته زوجة مثل زوجتي فبالتأكيد سيحس بعظمة النعمة حين يقارن بين زوجة مبذرة وزوجة تضع الخطط المالية الدقيقة والمحكمة من أجل تدبير شؤون الأسرة، وبين زوجة مشاغبة ومشاكسة وتثير المشاكل لزوجها وأسرتها لأتفه الأسباب، وبين زوجة وادعة كالنسمة تملأ البيت سرورًا وحنانًا وغبطة. وفضلًا عن كل هذه وذاك أنها امرأة صالحة وتقية ومؤمنة وهذا ما أحببتُه فيها منذ البداية واخترتُها لأجله.

أما ابنتي فرحة فقد بدأت أحس بنضج شخصيتها يومًا بعد يوم، وخصوصًا عندما وصلنا إلى قرقّلا. كانت تثير فيّ العجب والضحك حين تذكرني أنا ووالدتها بأشياء حدثت في الوطن، فكانت تقول: بابا: تذكر عندما كنا في الوطن حين حدث كذا! ونغص بالضحك حينها أنا ووالدتها عندما نشعر أن عقلها بدأ ينضج يومًا بعد يوم.

كنتُ أنتهز الفرص من وقت لآخر لكي أكسر الروتين ورتابة الحياة اليومية بالنسبة لي ولعائلتي بالذهاب إلى الحدائق القريبة من المنزل، ولذلك كنتُ دائمًا أقول لأم فرحة أن ابنتنا فرحة كان لها الحظ الأوفر من الأناضول، لأنها قد لعبت هنا بما لا يقارن مع عمرها السابق كله.

وقد خططتُ مسبقًا، بعد أن استلمتُ الخمسمائة ليرة الأناضولية من السوسيال أن أقتطع قسمًا منها من أجل أن آخذ عائلتي في سفرة سياحية إلى عمورية، وبالتحديد إلى حديقة الحيوانات هناك، والتي علمتُ بوجودها من المنفيّين. وكانت السفرة فرصة بالنسبة لنا من ناحية أخرى لأن أم فرحة لم تسافر بالقطار مسبقًا، ولذلك كانت السفرة فرصة من هذه الناحية أيضًا.

حجزت تذاكر السفر بالقطار قبل يوم واحد من مكتب قطع التذاكر في محطة القطار في قرقّلا. وانطلقنا في اليوم التالي بعد صلاة الفجر مباشرة من أجل اللحاق بالقطار قبل مغادرته، لأنه ينطلق في الساعة السادسة صباحًا. وبالفعل تحرّك القطار ونحن فيه في السادسة بالضبط، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها أم فرحة بالقطار.

وصلنا إلى عمورية عند الساعة الثامنة بالضبط، واتجهنا بالباص إلى قزلاي، ومن هناك اتجهنا إلى حديقة الحيوان في عمورية. كانت الحديقة من أجمل الأماكن التي زرناها في حياتنا، فقد كانت أشبه بالغابة وقد حشرت الحيوانات فيها من كل الأنواع تقريباً بشكل مرتب ومنهجي. رأينا فيها الأسد والنمر والقردة والنسور والكلاب من مختلف الحيوانات، وحيوانات أخرى رأيناها لأول مرة، مثل: التمساح، والزرافة، وغزال الرنة. كانت هذه السفرة واحدة من الأيام الجميلة التي قضيناها في الأناضول.

كما كان يومًا مشهودًا ذلك اليوم الذي زرت فيه جامعة قرقّلا لأول مرة بعد عودتنا من عمورية بأيام، حيث التقيتُ بأساتذة الفلسفة وأساتذة قسم اللغة العربية فيها، وقد كانت هذه الزيارة جزءًا من نظرية عقلانية طورتُها منذ زيارتي الأولى إلى هايدلبرج باحثًا زائرًا في جامعتها العريقة وهي (نظرية المشهد الأكاديمي). وملخص هذه النظرية أنه يتعين على الأكاديمي أن يكون قريبًا دائمًا من الأنشطة الأكاديمية والجامعية من أجل تطوير كفاءته وبحوثه وعلمه. كما كانت هذه الزيارة فرصة للتعرف إلى الوسط الأكاديمي والثقافي في الأناضول ولو بشكل محدود.

-٤-

وعاد عابد إلى الوطن!

يبدو أن المشهد لم يستمرّ على حاله بالنسبة لوضع المنفيّين هنا في الأناضول، إذ اتخذ أبعادًا جديدة متمثلًا بوجهتين بدأ المنفيّون يتجهون إليها خلال الأشهر الأولى بالنسبة لي ولعائلتي. الوجهة الأولى كانت دول المنفى أو المنفى. فقد بدأ المنفيّون الموجودون في الأناضول لمدة سنة تقريبًا بالحصول على تذاكر الطيران (المسمات بالأناضولية: الجكش ويعني إذن الخروج من الأناضول إلى المنفى النهائي).

كان أبو قدوري من أوائل من حصل على الجكش الذي رأيتُهم هنا في قرقّلا، وهو لم يكمل السنة بانتظار هذه اللحظة، لحظة إعادة النفي النهائية بل كانت مدة انتظاره تقل عن السنة بشهر واحد، وكانت هذه المدة تعدّ من قِبَل المنفيّين ممتازة جدًّا بالمقارنة مع منفيٍّ رأيتُه في عمورية في إحدى سفراتي إليها وكان لا يزال بانتظار نتيجة المنفى منذ أربع سنوات ونصف السنة!

بعد ثلاثة أشهر تقريبًا من قدومي إلى الأناضول صار المنفيّون في فريقين: الأول، يصبر مدة سنة تقريبًا، تزيد أو تقل بشيء قليل، من أجل الحصول على (الجكش) أي: الوصول إلى آخر محطة في طريق المنفى، وهي لحظة الطيران إلى المنفى النهائي، والفريق الثاني: لا ينتظر هذه اللحظة بل يقرر العودة إلى الوطن، وكان من ضمن هذا الفريق عابد.

تتفاوت أسباب الفريق الثاني في عدم المضيّ في طريق المنفى، ولعل أحد الأسباب الرئيسية وراء هذا الفريق تكمن في العامل المادي. فالمنفيُّ في الأناضول،

وطبقًا للقانون ممنوع من العمل إلا في حالات استثنائية جدًّا، ومن ثم يصبح العامل المادي من أهم العوامل وراء قرار العودة الصعب. وتقف عوامل أخرى أيضًا، ولعل منها عامل (الهوم سكنس) أو مرض الحنين إلى الوطن.

إذن عوامل عديدة هي التي دفعت عابد إلى إلغاء ملف المنفى والعودة إلى الوطن. وقد كانت اللحظات الأخيرة في وداعه صعبة عليّ، لأنه وقف إلى جانبي وقفة الوطني الشهم، ولم يدخر وسعًا في إبلاغي عن كل ما من شأنه أن يعينني على الصمود في قرقّلا. ودّعتُه والدموع في عيني، ودعوتُ له بالتوفيق له ولعائلته، وقلتُ له: أني سأظل أذكره بكل خير، _ إن شاء الله _.

بعد يوم واحد فقط من رحيل عابد، فوجئنا وبشكل مباغت ونحن نبحث في الإنترنت في موقع مفوضية المنفيّين عن نتيجة المقابلة الأولى، وإذ بنا نُفاجَأ بأننا قُبِلنا كمنفيّين من خلال المقابلة الأولى. وكانت المفاجئة كبيرة حينها؛ لأننا بهذه الخطوة قد خطونا الخطوة الأولى في طريق المنفى بشكل رسمي. وقد سبق هذه الخطوة بأسبوع تقريبًا اتصال من قِبَل إحدى موظفات مفوضية المنفيّين في عمورية لتستفسر عن بعض القضايا المتعلقة بملفنا، وقد توقعتُ حينها أن الملف قد بدأ يتحرك عن سكونه الذي استمر لمدة شهرين تقريبًا، وأن الامور قد بدأت تنفرج! وإن كنّا إلى الآن لا نعرف الوِجهة النهائية للمنفى، أو أين سيصل بنا هذا الطريق.

استفسرتُ من المنفيّين عن سبب تأخر الاستيطان لأكثر من شهرين، إذ لم تظهر النتيجة، فبيّنوا لي أن السبب ربما يكمن في كثرة المنفيّين الذين بدؤوا بالتدفق على الأناضول خصوصًا بعد التسهيلات الأخيرة في مجال منح الفيزة إلى المنفيّين. ومع ذلك، فما أنا متأكد منه الآن أنه يتعيّن عليّ الصبر، فعامل الصبر هو من أهم العوامل في كل الأمور، ومنها بالنسبة لمن كان في مثل حالتي منفي (وطن سز)!

لم أعد ألتفتُ كثيرًا إلى عامل الوقت من حيث ارتباطه بتوقيتات المنفى. بل صرتُ ألتفت بشكل أكبر إلى المحيط الاجتماعي في الأناضول وعلاقاتي بالأخوة المنفيين وبشكل أكبر بنتاجاتي العلمية. علاقاتي بالأناضوليين بدأت تتطور بالتدريج، خصوصًا بأصحاب المحلات التجارية القريبة من بيتي. وكذلك المنفيّين، وخصوصًا سعد والذي أخذت علاقتي به تتطور يومًا بعد يوم، حتى صار كلٌّ منا بالنسبة للآخر كالكتاب المفتوح. وكان من ثمار هذه الأخوّة مع سعد أن قد سجّلتُ ابنتي فرحة بالروضة الحكومية في قرقّلا.

علمتُ من خلال أصدقاء سعد من الأناضوليين (خصوصًا الحاج مصطفى صاحب المحلات التجارية المعروفة في قرقّلا، وآرون الذي يعمل لديه) أن هنالك روضة حكومية في قرقّلا، وأنها لا تتقاضى أجورًا مقابل تسجيل الأطفال فيها. بادرنا إلى أخذ ورقة من الحاج مصطفى إلى الروضة، وعلى الفور عرفته مديرة الروضة، وأبلغتني بعد اتصال هاتفي أجرته على عجل أنه بالإمكان تسجيل ابنتي لديهم بدون أن يتقاضوا أي أجر، لأننا منفيّون هنا في الأناضول، وهم سيساعدونا لأسباب إنسانية.

وبسبب كل ذلك لن أتمالك نفسي أكثر من ذلك، وسأصرخ بصوتٍ عالٍ:

آه يا شعبي الأناضولي الطيب كم أحببتك!

كم أود أن أعانقك، وأن أفتح لك قلبي كي تعلم كم أنا عاشق لأرضك وسمائك، لترابك وهوائك، للشيوخ، للأطفال، للرجال، للنساء!

لقد منحتَني يا شعبي الأناضولي الطيب الآمان الذي حُرِمتُ منه في وطني، فما أغلاك!

وكرّمتَني حين خذلني الآخرون!

فعش دائمًا، يا شعبي الأناضولي الطيب، عزيزًا مصانًا!

فرحتُ فرحًا كبيرًا ونحن نملأ الاستمارات الخاصة بالروضة بالمعلومات المطلوبة، بواسطة إياد، أحد أصدقاء سعد من الأناضوليين، حتى أنني لما عدتُ إلى البيت كانت فرحة زوجتي وابنتي فرحة بهذا اليوم البهيج لا توصف. وربما كانت سعادتي أكثر لأنني كنتُ أتمنى أن تتحقق هذه الخطوة بالنسبة لابنتي فرحة لأنني أعتقد أن الروضة هي محطة دراسية مهمة في حياة الطفل، فمنها يتعلم أولى خطواته العلمية. فضلاً عن أنني أردتُ تعويض فرحة عن الروضة التي كانت تداوم بها بشكل منتظم في الوطن، وقد فعلتُ، بفضل الله!

في صباح اليوم التالي اصطحبتُ فرحة إلى الروضة بناء على رأي المديرة، وكان عليّ أن آخذ لها حذاء آخر، يتعيّن أن ترتديه في الداخل، بالإضافة إلى ملابس إضافية تستخدم في حالة الطوارئ! وبالطبع، وكعادة الأناضوليين، فالروضة حديثة جدًّا، ونظيفة إلى أبعد الحدود، وقد أخذتُ، في الواقع، أقارن بينها، وبين رياض الأطفال الموجودة في الوطن، وكانت المقارنة صعبة من كل النواحي، بالنظر إلى الميزات العديدة التي تتمتع بها رياض الاطفال في الأناضول، من ناحية التعامل مع الطفل، والتغذية، والتعليم، وغير ذلك.

سعد هو الذي كان وراء هذه الفرحة الكبيرة! فبواسطة علاقاته مع الأناضوليين تعرفنا إلى وجود الروضة الحكومية هنا في قرقّلا، وأنها لا تتقاضى أجورًا من المنفيّين، وهو الذي ذهب معي يومها إلى الروضة، وقابلنا مديرة الروضة سويًّا، وتحدّثنا إليها، وهو الذي ذهب معي إلى صديقه إياد، والذي قام بملء استمارات التسجيل لنا مشكورًا.

كما كان سعد وراء حصولي على الإنترنت بواسطة الهاتف. فقد بيّن لي أنه يمكن أن أحصل على النت في جوالي بواسطة تفعيله عن طريق الشركة. ولما كان (السيم كارت) أو شريحة الهاتف الذي استحصلتُه بعد وصولي إلى الأناضول هو من

شركة فودافون، فلذلك ذهبنا إلى مكتب الشركة في قرقّلا من أجل تفعيل خط الإنترنت عبر الهاتف. دفعتُ سبع ليرات أناضولية من أجل ذلك، وبواسطة أحد موظفي الشركة تم تفعيل الإنترنت في هاتفي الجوال. وقد كانت هذه الخطوة برأيي هي إحدى الخطوات المهمة، لأنني أخرج إلى خارج المنزل، وأحيانًا إلى عمورية، ولذلك أنا بحاجة إلى النت في هاتفي من أجل تصفح المواقع، وتطوير دراستي للغات الأجنبية بشكل مستمر، فضلًا عن الاستفادة من موقع اليوتيوب عن طريق المحاضرات والأفلام الوثائقية التي يتضمّنها. كما أن من شأن النت أن يفيدني في الاتصال اليومي المستمر مع سعد عبر الإنترنت في هاتفي بدلًا من الاتصال بالهاتف مما يعني الاقتصاد في نفقات الاتصال.

حدثني سعد أيضًا عن رغبته بالاتصال بإحدى الممثليات في عمورية من أجل الاستفسار عن إمكانية تقديم طلب المنفى إليها بشكل مباشر، بعد أن أخبرتْه خالته المنفية عن هذه الفكرة، وطلبت منه التقديم للممثلية. بيّنتُ لسعد أنني أعلم بوجود مثل هذه الفكرة عندما كنتُ في دار السلام، وأنني اتصلتُ بالممثلية حينها، وأخبروني حينها بإمكانية التقديم سواء من الوطن أو من الخارج، والخيار الثاني أفضل، لكني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعًا وبشكل كبير أن هذه الخطوة من الممكن أن تؤدي شيئًا بالنسبة له بناءً على خبرة سابقة.

اتفقنا أن ننسق العمل من أجل الترتيب للاتصال بالممثلية في عمورية عن طريق عدد من الخطوات المنطقية. كان أولها تصفح موقع الممثلية عبر الإنترنت، للحصول على رقم الهاتف، والإيميل الخاص بالممثلية. ودار بيننا نقاش حول ما إذا كان من الاجدى أن نذهب بشكل مباشر إلى السفارة في عمورية أم ننتظر الإجابة بواسطة الهاتف أو الإيميل. حسمتُ أنا الرأي في الذهاب من عدمه بأنه يتعيّن علينا الاتصال

بالممثلية أولًا عن طريق الهاتف أو الإيميل بدلًا من إنفاق المال على الذهاب وقد لا نحصل على نتيجة معينة.

استحسن سعد فكرتي، وبدأنا بتطبيقها بالاتصال بالممثلية على الهاتف المخصص لها. تبيّن لنا من خلال الاتصال بالهاتف بأنه لا يمكن الذهاب إلى هناك بشكل مباشر بل لا بد من أخذ موعد مسبق. حاولنا أكثر من مرة الاتصال من أجل الحصول على موعد لكن يبدو أن الخطوط كانت مشغولة. لذلك كانت لدينا محاولة أخيرة في إرسال رسالة بالإيميل عسى أن نحصل على إجابة محددة.

وبعد يومين تقريبًا فاجئني سعد بالاتصال عبر نت الهاتف بأنه يريد لقائي على الفور لأن الممثلية قد اتصلت به وأنه يريد لقائي ليُعْلِمَني بالتفاصيل. التقينا بعدها بوقت قليل وذكر لي أن موظفة في الممثلية تحدثت معه باللغة العربية لما يقرب من ربع ساعة. وقد بيّنوا له أنه للحصول على المنفى عن طريقهم يتعين على المنفيّ أن يتم تحويل ملفه عن طريق مفوضية المنفيّين، أو عن طريق قسم المنفى، حيث يتعين أن يتقدّم شخص بالتقديم للملف ومتابعته نيابة عنه. المهم، وصلنا إلى قناعة أخيرة: أن الأمور ليست بهذه السهولة التي يمكن للمرء أن يتصورها.

لكني انتهزتُ فرصة الاتصال بالسفارة من أجل أن أُطلع سعد على إحدى نظرياتي العقلانية التي كنتُ قد طورتُها مسبقًا في دار السلام، وهي (نظرية الخيارات المتعددة). وتشير هذه النظرية أن يتعين على الإنسان أن لا يظل متمسكًا بخيار واحد، بل يتعيّن عليه البحث عن خيارات متعددة، بحيث إذا لم يحصل على نتيجة معينة في ضوء خيار معيّن فإنه سيحصل على نتيجة، ربما، من خيار معيّن كان قد فكّر فيه. فرح سعد بهذه النظرية لأن من شأنها أن تساعده في التخفيف من متاعب الغربة ومفاجآتها الحزينة.

وفي أثناء الحركة المكوكية تلك، اتصلت بي والدتي لتخبرني أن ابنة اختي وفاء قرب الملعب الروماني في العاصمة الجبلية ستجري عملية جراحية في الأنف. وبادرت على الفور بالاتصال بأختي للاطمئنان على صحة ابنتها زهراء، فأخبرتني أنها ستجري العملية الجراحية في اليوم نفسه. وقد بادرتْ أختي فيما بعد إلى الاتصال بي لتخبرني أن العملية تمت بنجاح، وأنهما في طريقهما للخروج من المستشفى إلى المنزل. الحزن يأخذني كل مأخذ حين يمر بي ذكر أختي بالنظر للظروف الصعبة التي تعيش فيها؛ فهي غريبة لوحدها مع ابنتها، لكن اتصالي بها واتصالها بي من حين إلى آخر كان من شأنه أن يعمل على تخفيف وطأة الغربة عليها.

فاجئني سعد من خلال الإنترنت المربوط بهاتفي الجوال مفاجئة كبيرة، وباغتني بالقول: إن صورتي في إحدى الجرائد الأناضولية الصادرة اليوم!

ذهلتُ من هول المفاجئة، فمن أنا هنا في الأناضول؟ وماذا صنعتُ من أجل أن تظهر صورتي في الصحف الأناضولية؟ لم أُطِق صبرًا وأنا بانتظار أن ألتقي سعد لكي أرى الصحيفة بأم عيني.

وقريبًا من الهيكل حيث كان سعد ينتظر. سلّمتُ عليه، وبادرتُه بالسؤال عن الخبر، فقال لي:

أبو فرحة صورتك على صفحة الجريدة الأناضولية، صرتَ مشهورًا!

فسألتُه على عجل: ولِمَ؟

قال: هل تذكر عندما استلمنا معونة الأغطية من الهلال الأحمر الأناضولي؟ (كنا قد استلمنا هذه المعونات قبل أسبوع تقريبًا، والتقطوا صورًا لنا حينها).

فأجبتُ: بالتأكيد، كيف يمكن أن أنسى!

قال بهذه الطريقة ظهرتْ صورتك في الجريدة وأنتَ تحمل الأغطية.

ذهبنا بسرعة إلى أصدقاء سعد من أجل أن آخذ نسخة من الجريدة، وبالفعل أخذتُ نسخة منها، وإذا بي أرى صورتي على الواجهة الأساسية للجريدة. ولم أكن الوحيد الذي تفاجئتُ بهذا الحدث، فعندما عدتُ إلى البيت ورأتْ أم فرحة صورتي في الجريدة أخذنا بالضحك إلى وقت طويل!

يومها، خطرت ببالي فكرة معينة، أخذتُ أفكر فيها بصمت، أو مع زوجتي أم فرحة، وبعد الاستخارة والمشورة قررتُ تنفيذها. تتلخص هذه الفكرة في نشر ريبوتاج عن حالة المنفى للمنفيّين في الأناضول، على أن أركّز على حالتي الشخصية وحالة سعد.

لكني أجّلتُ تنفيذ الفكرة ريثما أنجز حدثًا هامًّا هنا في الأناضول، كان هذا الحدث الهام هو المؤتمر الدولي لكلية الإلهيات في عمورية.

اتصل بي ميسر من عمورية ليعلمني بأنه سينعقد مؤتمر دولي في جامعة عمورية في الكلية التي يحضر للدكتوراه فيها، وهي كلية الإلهيات؛ ففرحتُ بهذا الخبر، لأن من شأنه أن يجعلني في تواصل مع المشهد الأكاديمي بشكل عام، وفي الأناضول على الخصوص. هذا التواصل الذي كان أحمد، أخي وصديقي الذي يحضر للدكتوراه في هوكايدو، قد ذكّرني به مشكورًا في أحد اتصالاته الهاتفية بي خلال وجودي في قرقّلا.

ذهبت إلى شعبة الأجانب في قسم قرقّلا من أجل أخذ رخصة للذهاب إلى عمورية لحضور المؤتمر. فبحسب القانون الساري هنا في الأناضول يتعيّن على المنفيِّ أن لا يغادر المدينة التي حُدِّدتْ له من قِبَل مفوضية المنفى بالتنسيق مع قسم الأمنيات في الأناضول، بل يجب عليه الاستقرار فيها، حتى أنه إذا أراد مغادرة البلدة لزيارة بلدة أخرى لأي سبب ينبغي عليه أخذ رخصة من الأَمْنيّات لزيارتها.

حصلتُ على الرخصة المذكورة قبل يوم واحد من المؤتمر. وذهبتُ إليه صباح اليوم التالي بشكل مبكر جدًّا؛ لأنني أخذتُ القطار الذاهب من قرقّلا إلى عمورية.

ربما كنتُ أول الحاضرين تقريبًا، وبعدي بدأ الحضور يتوافد بشكل تدريجي إلى قاعة المؤتمر، ورأيتُ فيه عددًا من الأساتذة العرب والأناضوليين المعروفين في مجال الدراسات الإسلامية، وكانت هذه فرصة ذهبية بالنسبة لي؛ لأنني _ ولأول مرة _ أحضر مؤتمرًا دوليًّا وخارج الوطن، وكانت هذه الفرصة من نعم الباري عليّ، والتي لا يمكن لي عدُّها أو إحصاؤها.

بدأتُ استعداداتي لموضوع الريبورتاج أو التقرير في الأيام اللاحقة. وقد أنجزتُه بطريقة طريفة للغاية. كتبتُ الريبورتاج باللغة الأناضولية في صفحتين تقريبًا، وكان لا بد أن أجد من يعينني في مجال ضبط اللغة من نواحيها المتعددة. كان لدينا أنا وسعد خيارات متعددة، واستقر رأينا أخيرًا على الذهاب إلى المستشفى التعليمي في قرقّلا لكي يساعدنا الأطباء الذين نعرفهم في مجال تنقيح اللغة الأناضولية. وبالفعل استطعنا بمساعدة بعض الأخوة من الأطباء الأناضوليين، والذي قاموا مشكورين باقتطاع جزء من وقتهم من أجل تصحيح النسخة التي بين يدينا.

انطلقنا بعدها إلى مدير تحرير الجريدة الذي وعدنا مسبقاً بنشر الريبورتاج في حال الانتهاء منه. وصلنا إلى مكتب الجريدة الكائن في مركز قرقّلا، وسلمنا التقرير إليه، ووعدنا بنشره في العدد القادم من الجريدة.

لم أدخر الوقت فقط في انتظار ظهور الريبورتاج، بل كان عليّ أن أعيش حياتي بشكل اعتيادي وروتيني. وكان من ضمن النشاطات التي أنجزتها هو حضور اجتماع الذي عقد في روضة فرحة، والذي حضره أولياء أمور أولياء الأطفال في الروضة. وقد حضر معي إلى الاجتماع أم فرحة، وكان الحديث في الاجتماع كله باللغة

الأناضولية ولذلك لم نفهم مما قالوه إلا القليل! (وانتظرتُ أشهر بعدها ولم يُنشر الريبورتاج ولا ندري الأسباب الحقيقة الكامنة ورائه).

ولعل أكبر المفاجآت التي حدثت في الأيام هذه هو ظهور نتيجة المنفى، وقد علمنا بظهورها بشكل مباغت، حينما فتحت أم فرحة حسابنا في المفوضية في عمورية، وصاحت فجأة: أبو فرحة، ظهرت النتيجة!

حدّقتُ بسرعة في الكومبيوتر، وإذا بي أرى أن نتيجة الاستيطان قد ظهرت بالفعل!

وبسرعة خاطفة أخذت عائلتي إلى مكتب (تيليكوم) القريب من بيتنا لكي أخبر والدتي بالخبر، فقد قررتُ أن تكون أمي هي أول شخص أخبره بهذا الحدث الجلل، وقد فعلتُ. بعدها اتصلتُ بأختي أم زهراء في عمان، للأمر ذاته، ومن ثم اتصلنا بأم إبراهيم لكي نقصُّ عليها الخبر، وقد فرحت لذلك، وأخبرتنا أنها سترسل لنا عنوانها الجديد من أجل أن نقدمه في المقابلات الآتية الخاصة بإنجاز معاملة المنفى.

لكن بالرغم من سعادتنا بظهور نتيجة الاستيطان، وبتحريك الملف من قبل المفوضية، لكن كانت هنالك غصة عميقة في القلب، رافقت ظهور النتيجة المذكورة، تلك الغصة هي حزني على فراق والدي، وقد بدأ هذا الحزن يتخذ صورًا وأشكالًا مختلفة بتوالي الأيام هنا في قرقّلا. الرسائل الحزينة التي كان يبعث بها إليّ والدي بواسطة الهاتف الجوال ردًّا على الرسائل التي كنتُ أبعث بها إليه، كانت تدمي قلبي، وتقطّعه إربًا حتى يسيل منه دم الفراق في مكابدات الصبر وبلوى الاغتراب الجسدي عن الوطن.

مرة كتبتُ له في رسالة بالهاتف الجوال أقول:

أبي الحبيب! قبلات من شوارع الغربة على رأسك الشامخ ويديك الكريمتين.

فأجاب، يقول:

إن كانت رسالتك من شوارع الغربة، فأنا أرسل لك من والد أثقل كاهله الزمن، وكم كان يُمَنِّي النفس أن يعيش بكنف ابنه الكبير ليزيل ولو جزء قليل من عذاب الدنيا وقساوتها، ولكن يا ولدي هذه حال الدنيا!

كانت هذه الرسائل تمارس عليّ نوعًا من التمزّق بين رغبتين، بين رغبة أن أكون بشكل دائم مع والدي؛ لكي أخدمه، فهو يتقدم بالعمر يومًا بعد يوم، وبين ضرورة البقاء في الخارج، والصراع من أجل هذا البقاء، ليس فقط من أجل نفسي بل من أجل كل من أحب، وفي مقدمتهم والدتي ووالدي الحبيبين.

وقد بدأت التفكيكية تفعل فعلها في البنية الجذرية للمجتمع الوطني. أكتب هذا الكلام وقلبي يقطر دمًا من التصدع العظيم الذي حصل في هيكلية البناء الاجتماعي الوطني. يبدو أن المواطن الوطني، وتحت وطأة الظروف المعقدة التي مر بها، أي ظروف الحروب والحصار الاقتصادي والنزاعات الداخلية، قد فعلت كل هذه الظروف القاهرة فعلها في تمزيق بنائه الداخلي الاجتماعي.

-٥-

كان عليّ أن أصبر، أو أن أمارس أقصى درجات الصبر بالرغم من شواش التفكير الذي كان يضغط عليّ بشدة، بسبب ما علق بي من بقايا التاريخ، وحمولات الإنهاك بسبب ذاكرة الوطن. كان عليّ أن أصبر وأنا أتمزق بسبب رؤية أفواج المنفيّين وهي تتدفق من الوطن ومن أرجاء المعمورة الأخرى طلبًا للأمن ورغبة في عيش رغيد.

والصبر هو أحد الفضائل الأخلاقية التي جاء بها الدين.

حاولتُ أن أمارس فعل الانزياح الصامت إلى الداخل بدون أن أشعر أحدًا بهذا الانزياح، حتى زوجتي أم فرحة. كان هذا الانزياح مسؤولًا عن مشروعية التوغل في تحليل العالم، ولو بشكل صامت من أجل أن أحيا بالطريقة التي أريد بعيدًا عن زحمة الفوضى التي يعيشها الوطن، وبعيدًا عن الانسحاق تحت وطأة الإيفاء بمتطلبات المنفى والمنفى.

ولم يكن هذا الانزياح التحليلي إلى الداخل غريبًا عليّ، فأنا معتاد عليه منذ أمد طويل. كان عليّ أن أمارس تحليلاتي هذه المرة بالتوغل الصامت أكثر فأكثر في ثناياها. وبالطبع كان الإنترنت هو أحد أهم الوسائل في هذا التوغل.

أردتُ أن أعوض الفقر المدقع في مجال نشر البحوث الخاص بي. وإذ لم يكن لديّ الوقت الكافي في الوطن لأن أكتب وأؤلف بسبب المشكلات الكبيرة التي كنتُ أعيشها هناك، أردتُ بعد أن قَدِمتُ إلى قرقّلا أن ألحق بالركب ما استطعت من خلال تأليف الكتب وكتابة الأبحاث العلمية ذات المنهجية الفلسفية.

كان موقع (الأرشيف) واحدًا من الاكتشافات المهمة لي هنا في قرقّلا. لقد أعانتني سرعة الإنترنت على اكتشاف العديد من الكتب من هذ الموقع، في مجالات عدة، خصوصًا الفلسفة والاستشراق. ففي مجال الاستشراق استطعتُ رؤية الطبعات الأصلية الصادرة في القرن التاسع عشر _ وقبله أحيانًا _ وبدايات القرن العشرين. الطبعات التي _ في تصوّري _ يستحيل الحصول عليها الآن إلا بهذه الطريقة. وبذلك اكتشفتُ ما هو موجود من مؤلفات لماسينيون، وجولدزيهر، وأوجست فيشر، وآسين بلاثيوس، وزوتنبرج، وفينسنك، وفلهاوزن، وفون كريمر، وترتون، وسنوك هرونجرونيه، وروس، ورودويل، ورينولد نيكلسون، ورامبولدي، وأوكلي، ونولدكه، ونللينو، وماكس هورتون، ومرجوليوث، وليتمان، وكرينكو، وغيرهم.

أما في مجال الفلسفة، فقد استطعتُ بواسطة الموقع المذكور من الاطلاع على العديد من الأعمال الفلسفية. فمثلًا: استطعتُ الاطّلاع على المجموعة الكاملة لمؤلفات جون لوك، وديكارت، ومؤلفات فلاسفة آخرين، مثل: أوكست كومت، برنارد بولزانو، كارل ياسبرز، كارل بوبر، نيتشه، غارودي، فولتير، هيدجر، والآن بلوم.

الثورةُ المعلوماتية التي نعيشها اليوم ثورةٌ بكل المقاييس. لقد تمكّنت هذه الثورة من تقليص الفجوة في مجالات العلوم المختلفة، ومكّنت البشر من التواصل على الرغم من بعد المسافات بيسر وبتكلفة يسيرة للغاية. حتى أنني بدأت أنتبه إلى ضرورة النشر على شبكة المعلومات الدولية، وبالأخص نشر البحوث العلمية. بدأتُ ألاحظ أن النشر في المجالات العلمية الورقية الكلاسيكية مُكلِف من ناحية المال والوقت، فضلًا عن انتشاره المحدود. أما النشر الإليكتروني فهو سريع للغاية، وكلفته معدومة في كثير من الأحيان، وهو يحقق انتشارًا أوسع، بالنظر إلى عالميته، وسهولة التواصل مع شبكة المعلومات الدولية من مختلف بقاع الارض.

كان موقع (اليوتيوب) أيضًا من مصادر الفلسفة المهمة هنا في قرقّلا، فقد استفدتُ من سرعة الإنترنت في مشاهدة ساعات طويلة من التسجيلات المرئية النادرة لكثير من الفلاسفة ومحاضرات أُلقِيت في مؤتمرات عالمية وأفلام وثائقية. شاهدت آينشتاين، وهيدجر، وهانز جورج غدامير، وكارل بوبر، وهابرماس، وجومسكي، وآلآن تورين، وميشيل فوكو، وجيل ديلوز، وغيرهم.

التحليلات العقلية صارت بالنسبة لي وسيلة لأن أعيش الوجود بكل إشكالاته، وأن أحاول إيجاد الحلول لهذه الاشكاليات. صرت أتمتع بالتحليل بعد أن تأكد لي أن من الضروري أن لا تكون هذه التحليلات عبارة عن أفكار أناس جالسين في بروجهم العاجية بل لابد لهذه الأفكار أن تمارس رؤية ثاقبة لساحة الواقع وأن تعود إليه على شكل أفكار ومعالجات جذرية.

مرة كنتُ أشاهد محاضرة لغادامير على اليوتيوب، وكان يتحدث باللغة الألمانية عن (تنوع اللغات وفهم العالم)، فصار لديّ بعدها، وبعد متابعة سلسلة من المحاضرات له في هذا المجال قناعة أكيدة أن اللغة إحدى المفاتيح الأساسية لفهم العالم. أصبحتُ متأكدًا الآن أن الشخص يمارس عملية كشف لأوراقه المكبوتة حين يتحدث (دعه يبوح وأنت تحلل!) لكن هذا لا يعني استسلامي الكامل لأفكار الفيلسوف المذكور بشكل كامل بل قراءة أفكاره من زاوية نقدية متدينة.

أما عنك يا دريدا فما يمكنني أن أقول؟ هل أقول أنك سبّبتَ تفكيكًا في عقل الإنسانية بعدك لأنك رفعتَ شعار التفكيك؟ إن تفكيكك أشبه بالطاحونة التي تطحن في رحاها العقول والنظريات والفلسفات، كل ذلك بتفكيك يا فيلسوف التفكيك! ولا أدري هل كنتَ تعلم بنتائج هذه الفلسفة التفكيكية أم لا؟

لكن ما نراه على صعيد الواقع أنه صار الكل يمارس عملية تفكيك للكل، حتى وصلنا إلى زحمة الفوضى والتي بدأت بالتفكيك، لكني يا دريدا صار لديّ الحدس أين تتجه القافلة، إنها تتجه نحو الهاوية بالنسبة لركابها لكنها غنيمة للآخرين! صار الأخ يفكك أخاه بطريقة وحشية ويأكله كأنه فريسة على طريقة الوحوش الضواري. تغيرت الأخلاق وتطورت وصارت المسألة نسبية، صارت أكثر تاريخية، معبئة بشحنة التاريخ والمادية الجدلية، وتسير وفق داروينية موحشة ومتوحشة بدل أن تدخل في دار السلام، هذه الدار التي أرادها الخالق لخلقه.

على كلٍّ، تقدّمتْ (البعثة الدينية) في عمورية بالمعونة للعراقيين. منذ مدة وأنا أسمع المنفيّين يتحدثون عن مساعدات تُقدّم من قِبَل ممثلية (البعثة الدينية) في العاصمة الأناضولية. ولذلك قررتُ الذهاب إلى هناك ليس طمعًا فيما يُقدّم من مساعدات؛ لأنني أعلم أنها محدودة، ولكن من أجل الحديث معهم حول إمكانية أن يساعدوني في مجال تسهيل إجراءات المنفى. ذهبتُ لأول مرة مع عابد وضيغم إلى هناك في الشهر الأول من وجودي في الأناضول. تحدثتُ في المقابلة مع سيدة أجنبية حين حددتْ لي المقابلة معها، وكان إلى جوارها شخص عربي كمترجم، لكنني لم أعتمد عليه، بل فضّلتُ أن أتحدث معها مباشرة وجهًا لوجه من أجل أن أشرح قضيتي بطريقتي. ودار بيننا الحديث الآتي:

مرحبًا: أنا أستاذ الحكمة الإسلامية، مؤمن بالحوار والتسامح والتعددية، لكني واجهتُ الخطر على حياتي في وطني، مما جعلني أغادر الوطن، وآتي إلى الأناضول، وأطلب المنفى من مفوضية المنفيّين، في عمورية.

فأجابت: أهلًا وسهلًا. وسألتْ: ما هي حاجتك؟

فقلتُ: في الحقيقة إني أعيش ظروفًا اقتصادية صعبة، وإني بحاجة إلى السرعة في إنجاز معاملتي الخاصة بالمنفى.

.....

لم أحصل في ذلك اللقاء إلا بعض المعونات القليلة، كان منها حفّاظات أطفال لابنتي، وبعض الصحون والأقداح المستعملة. لكني حصلتُ على تقييم أساسي في ذلك اللقاء، وهو أنني أحسستُ بأن هنالك حلقة وصل بين (البعثة الدينية) وبين المنفى، وهذا ما تأكد لي فيما بعد.

مرت الأيام، وكان اتصالي الثاني بـ(البعثة الدينية) بعد أكثر من شهرين من أجل الغرض نفسه وهو الحصول على بعض التسهيلات فيما يتعلق بمعاملتي للمنفى. لكن النتيجة ظلت على حالها، وطالبني المبتعث الديني الذي قابلني بالصبر والانتظار بسبب كثرة أعداد المنفيّين المتقدمين لطلب المنفى.

يومًا ما، كنتُ جالسًا في المنزل، فاتصل بي سعد بواسطة نت الهاتف، وأخبرني بضرورة الحضور إلى منزل أحد المنفيّين وهو مؤيد لأن وفد (البعثة الدينية) موجود في منزله. ذهبتُ على عجل إلى منزل مؤيد، حيث وجدتُ المترجم نفسه الذي رأيتُه من قبل وهو يستنسخ مستمسكات المنفيّين. قدّمتُ له الكملك وأوراق المنفى، فتم تقييد اسمي واسم زوجتي. وأخبرني يومها أن كورس اللغة سيشمل اللغتين الأناضولية والإنكليزية. وأكدتُ له حينها أنني بحاجة إلى كورس اللغة الأناضولية، أما زوجتي فهي بحاجة إلى كورس اللغة الإنكليزية، ووعدني يومها أنه سيبذل ما في وسعه لتنفيذ ما طلبتُ بحسب الطاقة. وتفاجأتُ يومًا ما باتصال هاتفي من المترجم يخبرني فيه بأنه تم تسجيلي في دورة اللغة الإنكليزية، وأنه يتعيّن عليّ بدء الدوام مع بقية المنفيّين في المركز الثقافي في قرقّلا، والذي يقع بالقرب من مبنى الأمنيات في المدينة.

حضرتُ المحاضرة الأولى في الأسبوع التالي باللغة الإنكليزية، مع مجموعة من المنفيّين، وعلى الرغم من أنني فوجئت بأن هذه الدورة هي للمبتدئين، وكان يتعيّن علي أن أتوقع هذا منذ البداية لأن الدورة هي للمنفيين، لكني قررتُ المضي فيها، في سياق إحدى نظرياتي التحليلية وهي نظرية (شيء أحسن من لا شيء).

في اليوم التالي اتصل بي أبو غيث وأخبرني بأن الهلال الأحمر الأناضولي قد بدأ بتوزيع مبالغ مالية بمناسبة عيد الأضحى المبارك، ومقدارها خمسين ليرة أناضولية. وذهبتُ إلى هناك وكان المكان مزدحمًا بالمنفيّين، وتسلّمتُ المبلغ، وكان أول عمل قمتُ به هو أنني ذهبت إلى (بيم)، وهو أحد أبرز محلات التسوق في الأناضول واشتريتُ منهم بيتزا أناضولية، هذه البيتزا التي ظلت زوجتي تطالبني بشرائها منذ أن قَدِمنا إلى الأناضول، وكنتُ أؤجل شرائها إلى أن جاء هذا اليوم المشهود.

قضينا يوم عرفات صائمين، أنا وزوجتي والحمد لله، حتى إذا جاء أول يوم من أيام عيد الاضحى جاء إلى منزلنا سعد والحاج مصطفى لأن الاخير كان قد ضحّى بالعديد من الأضاحي، وأعطانا قسمًا من أضحيته. وشكرتُ الحاج مصطفى على ذلك، وقبّلتُه، ودعوتُ الله له بالفردوس الأعلى، وإذا بي أراه يبكي عندما سمع دعائي.

مرّت أيام العيد بطريقة روتينية كأنها مثل بقية أيام السنة، ولم تشهد أمورًا استثنائية أو جديدة سوى لقائي لأول مرة بالشيخ أبي عبد الرحمن وهو منفي من الوطن. رأيتُه ربما مرة أو مرتين قبل لقائي المباشر به أول أيام العيد في منزله في قرقّلا لكن لم يكن ثمة حديث معه، بل كان السلام بيننا فقط وبشكل عابر، لكن سعد اتصل بي ليخبرني أن ثمة مفاجئة حدثت بشكل غير متوقع مع الشيخ أبي عبد الرحمن وهو أنه قد تحدث إليه عبر موقع الفيسبوك واتفق معه على موعد للقاء، وقد حدثه عني في ذلك اللقاء وأخبره أنه يريد أن يراني أيضًا. حددنا موعدًا للقاء بعد صلاة العشاء، والتقينا

ودار بيننا حديث شيق حول موضوعات (علم الروح) لأن الشيخ أبا عبد الرحمن مَعنِيٌّ به، لكن للأسف لم يشفع له هذا العلم في وطنه فقد تعرض إلى خطر محدق هناك، مما اضطره إلى الهرب وتقديم المنفى هنا في الأناضول.

كنت في بيت الشيخ أبي عبد الرحمن حين اتصل بي صديقي وأخي الدكتور عبد النور من جبال الوطن، وقد وقع هذا الاتصال موقع الصاعقة عليّ؛ لأنني منذ ما يقرب السنة لم أكلمه لا في الهاتف ولا بشكل مباشر. تعرفت إلى د. عبد النور قبل عامين حينما كنتُ باحثًا زائرًا في جامعة هايدلبرج عن طريق منحة بحثية قصيرة الأمد.

عبد النور أخ أصله من جبال الوطن، وحاصل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية (إسلام فيزينشافت) من جامعة هايدلبرج العريقة، وهو يقيم في بافاريا منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا. اتصل بي حين علم بوجودي في الأناضول بواسطة الدكتور عبد الوهاب، الدكتور الوطني الذي التقيتُه في هايدلبرج أيضًا، وهو يقيم في بافاريا والألب منذ ما يقرب من أربعين عامًا، وقد دعانا حينها الدكتور عبد النور إلى الغداء في منزله الجميل في إحدى قرى هايدلبرج.

الألم العميق كان يعتصر قلب الدكتورين عبد النور وعبد الوهاب حينما علما ببداية مشواري للمنفى في الأناضول، لأنه قد ذكّرهما بالطريق الصعب الذي أجبرا على خوضه وهو طريق المنفى بسبب العواصف الجيوبولوتيكية التي غمرت الوطن في السبعينات والثمانينات. أخبرني الدكتور عبد النور في الهاتف بأنه يعمل عميدًا للعديد من الكليات في إقليم جبال الوطن، وطلب مني أن أبعث له بأوراقي وأوراق زوجتي من أجل يتم تعييننا في الجامعة هناك. وخيّرني بين العمل في جبال الوطن الوطن أو العمل في إحدى جامعات القسطنطينية المهمة حيث يترأس صديق حميم له إحداها هناك.

وبالرغم من أن اتصال الدكتور عبد النور كان من أجل تخفيف وطأة المنفى عليّ، ورغبة منه بمساعدتي، لكن الاتصال المذكور زادني حيرة، ففجأة فُتِحت لي فرص العمل في أماكن عدة، ولا زالت فرصة المنفى قائمة. إنني حتى هذه اللحظة محتفظ بعملي في الجامعة في دار السلام لأنني في إجازة لمدة سنة بدون راتب، وفرصة العمل في الجامعة في جبال الوطن قائمة تقريبًا بسبب الدكتور عبد النور وكذلك في الجامعة التي يعرف رئيسها في القسطنطينية، بالإضافة إلى فرصة العمل في قرقّلا، حيث عُرِض عليّ تدريس اللغة العربية، بالإضافة إلى فرصة المنفى.

ومن أجل حسم الموضوع، قررتُ أن أصلي صلاة الاستخارة، وأن أناقش الأمر مع أم فرحة، وأن أتصل بوالدتي في دار السلام من أجل معرفة رأيها أيضًا. واستقر رأينا جميعًا أنه من الأفضل عدم الاستعجال الآن باتخاذ قرار معين ريثما نصل إلى نتيجة حول موضوع المنفى.

انتهت أيام العيد بشكل سريع للغاية، ومرت الأيام القليلة التي بعده بشكل روتيني أيضًا، لكن هذا الروتين تلاشى ذات يوم حين اتصل بي ذو النون ليخبرني بأنه يريد لقائي في قرقّلا وعلى عجل. ذهبتُ إلى هناك وإذا به يريد أن يأخذني إلى جامعة قرقّلا من أجل فسح المجال أمامي لإلقاء محاضرات في الجامعة. وطبعًا لم تأت هذه الحادثة من فراغ لأنني قبل شهرين تقريبًا كنتُ قد ذهبتُ إلى الجامعة مسترشدًا (بنظرية الخيارات المتعددة) من أجل أن أفتح الطريق مع الجامعة تحسبًا لأي طارئ فيما يخص معاملة المنفى.

التقيت برئيسيْ قسم الفلسفة وقسم اللغة العربية في الجامعة. وقد أخبرني رئيس قسم الفلسفة حينها أن مادة الفلسفة الإسلامية تُدرّس في القسم لكن المشكلة أنها تدرس باللغة الأناضولية، ولكوني لستُ ملمًّا بشكل كامل باللغة الأناضولية لذلك فليس

بإمكاني تدريس هذه المادة للطلبة، فضلًا عن أن أستاذ المادة الأناضولي هو الآن في إجازة بحثية في الولايات المتحدة. لكنه بادر إلى تعريفي برئيس قسم اللغة العربية في الجامعة، وهو الدكتور أقطاي.

أخبرني د. أقطاي أنهم بحاجة إلى خدماتي للتدريس في القسم على مستوى طلاب الماجستير لكنه طلب مني الانتظار لأيام ريثما يتم التشاور في أمري في مجلس القسم. مرّت مدة طويلة تزيد على الشهر تقريبًا قبل أن ألتقي الدكتور أقطاي في صلاة الجمعة في جامع نقطة في قرقّلا. سلّمتُ عليه بعد انتهاء الصلاة، وتفاجأ كثيرًا لأنه كان قد نسي قضيتي بشكل نهائي، وعاتبني أن لم أتصل به طيلة هذه المدة، لكني ذكّرتُه بأنه هو الذي قال بأنه سيتصل بي ليعلمني بنتيجة التشاور في القسم. اعتذر كثيرًا، وأخبرني أنه بسبب مشاغله الكثيرة فقد نسي القضية برمتها ولم يتذكر أي شيء. عذرتُه بالطبع، وأخبرني أنه سيتصل بي بعد يومين لكنه نسي مرة أخرى!

كان ذو النون على علم، على ما يبدو، بهذه الاتصالات من قِبَلي بأساتذة الجامعة، لكونه يحضّر للماجستير في الفلسفة فيها، ويبدو أنه التقى بأحد أساتذة اللغة العربية وأخبره عني. ولذلك فقد عرض بكل كرم أن يقدّم لي يد المساعدة فيما يخص الموضوع المذكور، لكنه كان يذكّرني دائمًا بأنني كمنفيٍّ ممنوع من العمل وفقًا للقانون، لكنه قال سنعمل على أن نوفر لك محاضرات في الجامعة _ إن شاء الله _ على أمل أن تحصل على مبلغ مالي مقابل هذه المحاضرات.

ربما كنتُ المنفيَّ الوحيد من المنفيّين من أتيحت له الفرصة لكي يذهب إلى محل يمكن له أن يحصل على عمل فيه! نعم لقد حدث هذا، فقد ذهبتُ إلى الجامعة مع ذو النون وعيد وسائق السيارة والتقينا بأساتذة القسم في اللغة العربية وطلب مني

الحضور للمشاركة في تدريس اللغة العربية لكن بعد أسبوعين ريثما يتم الانتهاء من امتحانات الفصل الأول، فشكرتُهم وغادرتُ الجامعة بعد ذلك بصحبة دورية الشرطة.

وكانت هذه المدة مناسبة جدًّا لي، لأنني كنتُ بحاجة إلى الوقت من أجل قدوم والدتي مرة أخرى خلال الأيام المذكورة إلى قرقّلا، وللذهاب مع أسرتي ووالدتي إلى القسطنطينية من أجل مقابلة منظّمة المنفى هناك. في اليوم التالي لذهابي إلى الجامعة كنتُ بانتظار والدتي التي اتصلت قبل أيام لتؤكّد موعد قدومها إلى قرقّلا. ذهبتُ بعد الظهر إلى عمورية، بعد أن وقّعتُ في الصباح الباكر على حسب العادة الأسبوعية في أَمْنيّات قرقّلا، وطلبتُ منهم الإذن للذهاب إلى عمورية للقاء والدتي وإذنًا آخر من أجل استلام جوازاتنا الموجودة لديهم للذهاب إلى القسطنطينية من أجل المقابلة المذكورة.

حصلتُ على الأذونات المذكورة، فذهبتُ بعد الظهر إلى عمورية من أجل استقبال والدتي الحبيبة بالقرب من أوتوغار آشتي. وقد وصلتُ إلى هناك عند الساعة السادسة مساء، حتى إذا نزلتُ من الباص أخذتُ بتقبيلها وشم رائحة المسك المنبعثة من جسدها. وقضينا الساعة والنصف التي تفصل بين عمورية وقرقّلا بالحديث وتبادل الحنان والأمان والنصائح! ولما وصلنا إلى البيت، تبادل كل من والدتي وزوجتي وابنتي فرحة القبلات والدموع، وشرعت والدتي بإفراغ حقائب السفر من الهدايا التي جلبتها من الوطن.

كان من المفترض أن نكون في القسطنطينية يوم الإثنين للمقابلة في دائرة المنفى هناك والذي يقع بالقرب من أمريكان هاستانه وبعد مشاورات استقر رأينا على الذهاب قبل يوم إلى هناك وأن نؤجر غرفة في أحد فنادق المدينة. وقد كنتُ قد رتبتُ مع الحاج ميسر إيجار غرفة والذي قام بالاتصال بأحد الفنادق هناك، وهو فندق الرشادية، ويقع

في أقصراي، وتحديدًا في الفاتح، بالقرب من جامع محمد الفاتح. وبالرغم من أن إيجار الغرفة يصل في الليلة إلى مائة وخمسين ليرة أناضولية وهو مبلغ كبير جدًّا بالنسبة لمنفيٍّ مثلي لكني كنتُ مضطرًا إلى دفعه من أجل أن أضمن الوصول إلى الدائرة في الموعد المحدد، أي في يوم الإثنين.

انطلقنا قبل يوم، أي في يوم الأحد، في الصباح الباكر، في باص تابع لشركة (إي أس) وهي إحدى أبرز شركات النقل الأناضولية بعد حجز أربعة مقاعد، كنتُ أنا ووالدتي في مقعدين متجاورين وزوجتي أم فرحة مع ابنتي في مقعدين أمامنا. أخذ الباص يشق طريقه بين الجبال والتلال الأناضولية، فمرّ بمحافظة شهير القريبة من قرقّلا، وتوقف لمدة نصف ساعة في أوتو غار آشتي في عمورية، ثم عرج بمحافظة بولو وسكاريا وصولًا إلى القسطنطينية. تمتعنا بشكل كبير برؤية المناظر الجميلة المطلة على جانبي الطريق ورؤية الغابات الخلابة التي تغطي الجبال وقد كان ساحل البحر مذهلاً بطريقة تسحر الناظر!

وصلنا إلى أوتوغار القسطنطينية المذهل عند الساعة الخامسة مساء، وقد تكفّلت الشركة بإيصالنا بسرفيس مجاني إلى أقصراي ومن هناك قطعنا الطريق مشيًا على الأقدام لمدة تقرب من الربع ساعة إلى أن وصلنا إلى فندق الرشادية، فاستقبلنا موظف الاستقبال وطلب مني دفع مبلغ إيجار الغرفة وهو مائة وخمسين ليرة أناضولية، وذهب موظف الخدمة معنا إلى الغرفة التي استأجرناها وتقع في الطابق العلوي من الفندق. ارتحنا قليلًا، ثم خرجنا نتجول بالقرب من الفندق لأنني كنتُ راغبًا برؤية جامع السلطان محمد الفاتح وهو أحد أبرز المعالم الأثرية في المدينة.

مع إطلالة الصباح الباكر غادرنا الفندق متوجهين بالتاكسي إلى تقسيم حيث تقع الدائرة بالقرب من أمريكان هاستانه. تمت مقابلتنا في المنظمة المذكورة لمدة ثلاث

ساعات غادرنا بعدها عائدين إلى أوتو غار القسطنطينية وأخذنا الباص المتجه إلى قرقّلا فوصلنا إليها عند منتصف الليل.

لم تبقَ والدتي بعدها مطولًا لأنها كانت مضطرة للذهاب إلى الوطن بسبب أنها قد تقدمت بطلب إلى مدير المدرسة التي تعمل فيها من أجل الحصول على إجازة لمدة أسبوع واحد فقط للقدوم إلى الأناضول من أجل رؤيتنا ولجلب ما نحتاج من مواد تموينية وأدوية وغير ذلك مما نحن بحاجة إليه. أوصلتُ والدتي إلى أوتو غار آشتي ومن هناك انطلق بها الباص في رحلة العودة إلى الوطن.

لكني كنتُ في اليوم التالي على موعد آخر في أوتو غار آشتي مع أخ الدكتور عبد القهار، وهو قيس، والذي قرر منذ مدة القدوم إلى قرقّلا من أجل تقديم طلب المنفى إلى مفوضية المنفيّين في عمورية.

كان من المفروض أن يصل قيس إلى أوتو غار آشتي مساء، وكان يفترض بي أن أرتب كل الامور قبل مجيئه، ومن ذلك كان يتعين عليّ أن أذهب إلى سعد من أجل أن أستعين به لاستئجار سيارة سأستفيد منها لنقل أغراض وحقائب قيس وعائلته حينما نصل إلى المدينة مساء.

-٦-

لم أنتظر كثيرًا حينها لأنني كنتُ مضطرًا للعودة إلى البيت من أجل أداء صلاة الجمعة، وللذهاب بسرعة إلى أوتو غار آشتي في عمورية من أجل استقبال قيس وعائلته.

وفعلًا كنتُ في هناك قبل أن يصلوا بساعات والتقيتُهم في اللحظات الأولى لنزولهم من الباص. أخذتُ مع قيس بنقل الحقائب وصولًا إلى السيارة التي أقّلتنا إلى قرقّلا.

مكث قيس وعائلته يومان قبل أن نذهب إلى مفوضية المنفيّين، لأنه وصل يوم الجمعة مساء، والمفوضية لا تفتح أبوابها لاستقبال المنفيين يومي السبت والأحد. فذهبنا يوم الإثنين منذ الفجر مستقلين القطار إلى أولس ومن هناك إلى عمورية. قدمنا جوازات قيس إلى المفوضية وانتظرنا لمدة ساعة تقريبًا قبل أن تخرج علينا الموظفة المسؤولة لتحدد محافظة يلوا القريبة من القسطنطينية محافظة لسكن واستقرار قيس وعائلته وحددت له سبعة أشهر موعدًا للمقابلة الأولى في مفوضية المنفيين.

لم يكن قيس وعالئته راضين لا عن الموعد ولا عن المكان، فسبعة أشهر طويلة جدًّا بالنسبة لمقابلة أولى كانت تنجز في السنوات السابقة بأسبوع أو أسبوعين، أما المكان فيلوا تبعد عن قرقّلا ست ساعات وقد كان يأمل أن يسكن في قرقّلا قريبًا منّا. ومن أجل حل هذه الإشكالية فقد عدنا بأقصى سرعة إلى قرقّلا من أجل نذهب إلى الأَمْنيّات فيها لعلنا نستحصل موافقتهم لبقائه فيها ولكن للأسف لم تنفع هذه الوسيلة فقد رفض طلبه.

ذهب قيس ليلتها إلى يلوا من أجل أن يستأجر شقة هناك ويشرع في ترتيب أوضاعه الجديدة هناك. ويبدو أن أموره بدأت تتجه نحو الترتيب والسهولة لأن أقارب سعد يسكنون هناك، وبعد الاتصال بهم وعدوا بمساعدته قدر الإمكان. ذهب سعد إلى هناك لوحده، وبقيت عائلته لدينا لأن أطفاله الصغار كانوا مرضى. ولم يعد إلا بعد يومين ومعه البشرى بأنه قد استأجر شقة هناك، وأخبرنا أيضًا أن يلوا مدينة جميلة جدًّا لأنها تطل على ساحل البحر، وقد تم إخباره من قبل صاحب مكتب العقار الذي أجر له الشقة بأن من الممكن أن يجد عملًا في المدينة لأن العديد من المنفيّين يعملون هناك. وفي المساء غادر قيس وعائلته، وقد تمنينا لهم كل التوفيق وطيب الإقامة في المدينة الجديدة.

قررتُ بعد رحيل قيس وعائلته أن لا أبذل أي جهد خارج المجهود العلمي في الأيام القادمة لأنني كنتُ منهكًا جدًّا، حتى إنني قررتُ تأجيل الذهاب إلى الجامعة إلى الأسبوع المقبل بسبب الإنهاك الشديد. لكني لم أتخلَّ عن منهاجي العلمي، فقد عدتُ إليه عودة المشتاق إلى حبيب مفارق!

قضيتُ الأيام التالية بشكل كامل تقريبًا في المنزل إلا عندما أغادر إلى المسجد لأداء الصلاة، واستمرت الأمور بشكل روتيني وهادئ حتى الأسبوع التالي حين اتصلتُ بالدكتور أقطاي صباحًا بخصوص إلقاء محاضرات في الجامعة. لم يجبني وقتها فقلتُ في نفسي ربما يكون مشغولًا أو أن يكون في محاضرة ولم يستطع الإجابة على الهاتف. مساء حيث كنتُ في المنزل اتصل بي أخيرًا د. أقطاي فقال بأن لديّ موعدًا معهم في الجامعة في يوم الخميس القادم وبالتحديد في الساعة الواحدة ظهرًا.

انتظرتُ حتى جاء يوم الخميس وإذا بالدكتور أقطاي يتصل بي حينها ويقول أنه تم تأجيل الموعد إلى يوم الثلاثاء القادم، استغربتُ حينها من هذه التأجيلات المتصلة لكن لم يكن أمامي فعل شيء إلا الانتظار ريثما تتكشف الأمور.

يوم الجمعة التالي كنتُ وكعادتي أذهب بابنتي إلى الروضة صباحًا لكني ظهرًا لم أستطع اصطحابها للبيت لأني كنت في المسجد لأداء صلاة الجمعة وقد ذهبت زوجتي أم فرحة لإحضارها من الروضة فلما التقينا ثلاثتنا في البيت حدثتني زوجتي بأن الروضة قد أعطت لفرحة تذكرة ذهاب إلى السيرك في قرقّلا.

قررنا أن نذهب يوم الأحد إلى هناك لكن دار بيننا جدل من الذي سيدخل مع فرحة إلى السيرك لأن التذكرة التي حصلت عليها من الروضة هي لها فقط ولا بد من دفع تذاكر الكبار وهذا يعني أن علينا أن ندفع عشرين ليرة إضافية من أجل تذكرتي أنا ووالدتها. وبعد نقاش طويل وعند باب السيرك وجدتُني مضطرًا إلى دفع التذاكر والدخول مع فرحة إلى السيرك؛ لأنني أردتها أن تشعر بأنها مع أبويها في يوم سعيد بالنسبة لها كهذا. وهكذا قضينا وقتًا ممتعًا وبعد ساعة ونصف من انتهى العرض وعدنا إلى المنزل.

بعد يومين ذهبتُ إلى الجامعة بناء على الموعد الذي حدده د. أقطاي لي. وصلتُ في الموعد المحدد والتقيتُ عددًا من أساتذة قسم اللغة العربية ورئيس القسم أيضًا وأُخبِرتُ من قِبَلهم أنهم قد منحوني محاضرتين أسبوعيًّا _ إن شاء الله _ في يوم الثلاثاء من كل أسبوع. دخلتُ إلى قاعة الدرس وبدأتُ بإلقاء الدرس على الطلبة الأناضوليين، وقد دُهِشوا كثيرًا لذلك لأنها المرة الأولى التي يستمعون فيها لدرس في اللغة العربية من قِبَل أستاذ عربي. وغادرت حينها بعد الساعة السابعة مساء بصحبة

الدكتور عبد الصبور والأخ بهاء الدين بسيارة الأول إلى مركز المدينة حيث أوصلوني قريبًا من بيتي.

النقاشات استمرت بيننا حول قرار الاستقرار الأخير، وأي مكان هو الأصلح بالنسبة لنا للاستقرار والبقاء بشكل نهائي، لكن لم نتوصل إلى الآن إلى نتيجة معينة، والذي توصلنا إليه هو أن نستمر في صلاة الاستخارة من أجل نطلب الخير من الله _ سبحانه _، لأن الغيب بيده _ تعالى _، وهو وحده يعلم أين يكمن الخير، وأي مكان هو الأصلح لنا.

وكان عليّ أيضًا في هذا المجال أن أستشير قلب والدتي (مقياس رختر للصدمات المتعلقة بالأولاد) بخصوص قرار خطير كهذا، وكان رأي الوالدة هو الانتظار ريثما تتكشف الأمور شيئًا فشيئًا. وكانت أمي حبيبتي لا تزال تتابع متعلقاتي المتبقية في دار السلام، ومنها حضور حفل توقيع كتابي الجديد في نقد الحداثة الذي صدر بدار السلام مؤخرًا، في لحظات بالغة الصعوبة بالنسبة لي لأني كنتُ أتمنى حضور ذلك الحفل لشيء أساسي وهو أنه كتابي!

الفرح يبدو أنه لا يدوم في هذه الدنيا الفانية بزخرفها ولهوها ولعبها، فقد فوجئنا بعد أن فرحت بصدور الكتاب وفي اليوم نفسه بالخبر الذي نعى إلينا وفاة خال زوجتي في محافظة ديالى في الوطن. كنتُ في الدكان الذي يعمل فيه سعد مع الحاج مصطفى الأناضولي حين أخبرتني زوجتي أم فرحة بأن خالها قد توفي وأنها قد علمت بالخبر من بيت أخيها في أرض الكنانة. لم أمكث طويلاً عند سعد بل عجّلتُ إلى البيت؛ لأني متأكد أن زوجتي في أقصى حالات تعبها النفسي. حتى إذا دخلتُ المنزل ارتمت زوجتي في أحضاني وشرعت في البكاء وكان من حقها أن تبكي على خال قد ختم القرآن الكريم ألفيْ مرة تقريبًا وكان يشهد صلاة الجماعة في المسجد، حتى صلاة

الفجر، وهو في مرضه لم يكن ليصليها منفردًا بل كان يوقظ زوجته وابنته ليصلي بهم إمامًا!

عرفنا فيما بعد تفاصيل عن اللحظات الأخيرة في حياته، _ رحمه الله _. فقد أحس ليلتها بقرب دنو أجله، فطلب أن يجمع له أولاده جميعًا. حتى إذا اجتمعوا لوداعه قال لهم، وهو في سكرات الموت، بأنه سيرحل للقاء أهله وأوصاهم بأن لا ينوحوا عليه إذا مات، وطلب أن يخرجوه إلى حديقة المنزل من أجل أن يستنشق بعض الهواء، ثم طلب منهم أن يعيدوه إلى أريكته في صالة المنزل، وبعد قليل فارق دنيانا الفانية وذهب للقاء ربه _ عز وجل _.

استمرت هذه الاكتشافات في الوقت الذي استمرت فيه محاضراتي في الجامعة في درس اللغة العربية لطلبة الترجمة الفورية تخصص لغة عربية. وبدأتُ أحس أني أحب العمل هنا في الجامعة، أحببتُ الطيبة الخارقة لزملائي الأناضوليين، كما أحببتُ الشعب الأناضولي بشكل عام، وأحببتُ الطلبة، وهم أيضًا بادلوني الشعور نفسه، وهذا ما أخبرني به زميلي الدكتور عبد الصبور أن الطلبة قد أحبوا الدرس معي، وأنهم يسألون منذ الصباح الباكر عن وقتِ مجيئي لكي يبدؤوا الدرس معي. ولذلك استمرت النقاشات بيني وبين زوجتي حول الوجهة النهائية لنا ولكنا كنا نختم كل تلك النقاشات بأننا قد صلينا صلاة الاستخارة وأن الله _ سبحانه _ لن يضيعنا وأنه _ تعالى _ سيختار لنا ما هو الأصلح لطفًا ورحمة منه.

-٧-

استقبلنا العام الميلادي الجديد ونحن بعيدين عن الوطن والأهل والأحبة والأقارب مستذكرين سرعة مرور العام الفائت لأنا في مثل هذا اليوم كنا في منزلنا في دار السلام، ذلك المنزل الذي نحن إليه وإلى ذكرياتنا الطيبة فيه وأقاربنا حيث كنا نلتقي وجيراننا الطيبين. لكن لم يكن باليد حيلة مادمنا قررنا أن نسير في الطريق، طريق الغربة عن الوطن، كمنفيين، وكان عزائنا أننا لم نرد فراق الوطن لكننا مضطرون إلى ذلك أيما اضطرار. اتصال والدتي بنا لتطمأن وتخبرنا أنها ستأتي لزيارتنا _ إن شاء الله _ في غضون شهر، ربما يكون قد خفّف من وطأة الحزن الداخلي، وقد انتهزتُ فرصة الاتصال لأوصيها بجلب بعض اللوازم ومنها كتابي الأخير الذي صدر ولم أره إلى الآن.

ذهبتُ إلى الجامعة هذا الأسبوع أيضًا وفوجئتُ بالدكتور عبد الصبور يخبرني أن الطلبة الآن في امتحان نهاية الفصل الأول ولذلك فلا تدريس إلا في منتصف شهر شباط القادم لأن الطلبة سيمتحنون خلال شهر كانون الأول وستعطى لهم إجازة لمدة أسبوعين خلال شهر شباط. انتهزت فرصة حديثي مع د. عبد الصبور لكي أساله عن إجراءات التعيين هنا في جامعة قرقلّا أو في الجامعات الأناضولية بشكل عام، وهو أمر يقلقني منذ زمن. فأخبرني أن الأمر يتطلب أولًا موافقة رئيس القسم ثم عميد الكلية ثم رئيس الجامعة ثم وزارة التعليم بالجمهورية الأناضولية وأن الأمر يتطلب بضعة شهور لكي يتم البت فيه بشكل نهائي، لكنه قال لي في النهاية أنهم بحاجة لي في

القسم وأنه يتمنى بقائي بينهم فشكرته على حسن كلامه ودعوت الله _ سبحانه _ أن يقدّر لنا الخير في النهاية.

بدأت الفواتير الخاصة بالماء والغاز تنهال علينا بعد مرور شهر على فواتير الشهر الماضي. كانت فاتورة الماء كالعادة تقريبًا عشرين ليرة أناضولية، ولم نفاجأ بهذه القائمة، لكننا كنا بانتظار فاتورة الغاز وكان هذا هو المهم بالنسبة لنا، لأننا منذ بداية شهر كانون الثاني لم نعد نغلق المدافئ الكهربائية بناء على نصيحة الحاج ميسر أول ما قدمنا إلى الأناضول لأنه كان قد أوصانا بعدم إغلاق المدافئ الكهربائية عند قدوم الشتاء لئلا تتعرض الأنابيب إلى الانجماد، ولذلك كانت المدافئ مشتغلة بشكل متواصل يوميًّا وبدون انقطاع؛ لذلك كنا بانتظار فاتورة الغاز من أجل معرفة مبلغ المال المطلوب دفعه لقاء خدمة الغاز للشهر الماضي. فتحتُ الفاتورة على عجل وإذا بي أرى أن المبلغ هو مائة وست وستون ليرة أناضولية وأبلغتُ أم فرحة بسرعة بالأمر، وكان هذا المبلغ متوقعًا بالنسبة لنا بناء على الأرقام التي حددها لنا الحاج ميسر قبل قدومنا إلى الأناضول.

ذهبتُ إلى دائرة الماء لدفع فاتورة الماء ودفعتُ أيضًا فاتورة الغاز، وكذلك ذهبتُ إلى شركة التحويلات المالية (ب ت ت) حيث تعمل فيها السيدة الفاضلة سلطانة حرم السيد مصطاف وهو أناضولي شامي الأصل ومن مدينة أنطاكيا ويتكلم اللغة العربية، وكنا من قبل قد تعرفنا إلى مدام سلطانة عن طريق فارس؛ لأنه كان يستلم المبالغ التي تحول له عن طريق الشركة، عرّفنا أنا وعابد وسعد إليها بعد شهرين تقريبًا من وصولنا إلى قرقّلا. وكنتُ منذ شهر أيلول الماضي وبالتحديد في عيد الفطر المبارك قد التقيتُ زوج صاحبة الشقة هنا في العمارة وطلب مني أن أقوم بتحويل مبلغ الإيجار شهريًّا لهم إلى عمورية حيث يسكنون عن طريق شركة التحويلات المذكورة بعد أن أعطاني

رقم الحساب الذي ينبغي تحويل المبلغ عليه، وحينها حلت معضلة كبيرة لي وهي مشكلة تحويل الإيجار شهريًّا لصاحبة الشقة لأني لم أكن أعلم ما هي الطريقة التي يتعين بها إيصال الإيجار إليهم، وكانت هذه الطريقة هي الطريقة المثلى بالنسبة لي لإيصال الإيجار بشكل آمن لهم، وإن كنتُ أتكلّف مبلغ التحويل وهو خمس ليرات إضافية، لكن لم يكن أمامي من طريق غير هذا الطريق. المهم أنني منذ شهر تشرين الأول الماضي كنتُ أذهب إلى السيدة سلطانة لتقوم بتحويل المبلغ لي على حساب صاحبة الشقة.

بعدها بأيام اتصل بي د. أقطاي وأخبرني أنه يريد أن يلقاني وحددنا موعدًا للقاء عند جامع نقطة بعد صلاة العصر. صلينا العصر والتقيت بالدكتور أقطاي خارج المسجد، وإذا بي أفاجأ به يدس في جيبي مبلغًا من المال، وبالطبع لم أوافق على أخذه إلا بعد أن أكّد لي أن هذا المبلغ هو عن جملة المحاضرات التي ألقيتُها في جامعة قرقّلا في درس اللغة العربية. وقد علمتُ أثناء ذلك أن المحاضرات هي في الأصل له لكنه تنازل عنها لصالحي، كادت الدموع تنهمر من عيوني وأنا أستمع له:

فالله الله في طيبتك أيها الشعب الأناضولي!

لم أدع الفرصة تفوت بدون الاستفسار منه عن إمكانية التعيين في الجامعة، لكن تفاجأتُ بالدكتور أقطاي يخبرني أن التعيين فيه شيء من الصعوبة لأن إقامتي في الآراضي الأناضولية هي إقامة منفيّ، فضلًا عن أن التعيين ليس بشكل دائم وإنما هو بشكل مؤقت ويتم التجديد فيه بشكل سنوي، لكنه وعدني بأنه سيقوم بالاستفسار أكثر داخل الجامعة، وسيكلّف الدكتور عبد الصبور بالمتابعة _ إن شاء الله _. شكرتُ الدكتور أقطاي على كل جهوده المبذولة معي، وعانقتُه بحرارة، وودعتُه عائدًا إلى المنزل.

في هذه الأثناء اتصلت بي والدتي الحبيبة من دار السلام، وكانت على علم بكل الجهود التي أبذلها سواء بالنسبة لمعاملة المنفى أو إلقاء المحاضرات ومحاولة التعيين في الجامعة. وأخبرتها بما دار بيني وبين دكتور أقطاي، وكنتُ قبل ذلك قد قررتُ ومعي زوجتي أم فرحة أنه إنه إذا كان العمل ضمن عقد مؤقت في الجامعة فلا يمكن البناء عليه بشيء، وتبقى فرصة المنفى أفضل لأنه فرصة دائمة. وطلبتُ رأي والدتي في الموضوع فأيدت رأينا؛ وهكذا اتفقنا نحن الثلاثة أنه إذا كان الأمر على شكل عقد مؤقت ويتم تجديده ففرصة المنفى أفضل لأنه فرصة دائمة.

عدتُ إلى البيت وأخبرتُ أم فرحة بكل ما جرى مع د. أقطاي ومع والدتي فقالت: إذن قد توضحت الأمور أكثر فأكثر، وإذا كان الأمر كذلك ففرصة المنفى هي أفضل من فرصة التعيين لأن حجم الضمانات أكبر بكثير. وكنتُ من قبل قد اكتشفتُ نظرية تحليلية تقول أن الأعمق والأهم والإستراتيجي أهم من السطحي والمهم والتكتيكي، أي كلما كان الشيء أكثر فائدة، ومدى الفائدة أطول وأعمق فعند ذلك يصبح أكثر أهمية من غيره. كل هذه المدة في حيرة من أمري لتحديد ما هو الإستراتيجي هنا وهل هو التعيين أو المنفى، لكن لقائي بالدكتور أقطاي جعل الأمور أكثر وضوحًا.

بدأتُ أنا وزوجتي أم فرحة نحس بسرعة مرور الأيام، فقد انقضت أكثر من ستة أشهر منذ أن قدمنا إلى الأناضول إلى اليوم، وإذ نتذكر اليوم الأول الذي دخلنا فيه عمورية فكأنه كان البارحة، فقد مرت الأيام بسرعة فائقة، أسرع مما كنا نتصور. وقد كنتُ أتصور في أول يوم سكنا فيه في قرقّلا أن الأيام ستمر ببطء شديد، لكن الأمور سارت عكس ما كنتُ أتصور.

وعندما أجلس مع نفسي لأتذكر ما جرى أحيانًا أتذكر ضيغم الذي رحل مع عائلته إلى أمريكا، وكذلك ناصر إلى أمريكا أيضًا، وهما من المنفيّين الذي التقيتهم

في الأيام الأولى لقدومي إلى قرقّلا. كذلك بدأ الكثير من المنفيّين يتدفقون على الأناضول طالبين للمنفى، لكني لم أعد ألتقي الكثير من المنفيّين بسبب رغبتي في البعد عن المشاكل، ولأني راغب بالدرجة الأساس بالاستفادة من الوقت والإنترنت من أجل إنجاز المزيد من الأبحاث العلمية، بالإضافة إلى البرد، فقد بدأت درجات الحرارة تنخفض بشكل ملحوظ، حتى أن الثلج قد هطل مرتين إلى الآن، وكانت هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها هطول الثلج لأول مرة في حياتنا.

ويبدو أن هطول الثلج جاء معه بالخير فقد اتصلت والدتي من دار السلام لتعلمنا أنها بدأت تستعد للقدوم إلينا هنا في قرقّلا خلال شهر شباط القادم، فقد حصلت على الفيزة الأناضولية من السفارة الأناضولية في دار السلام وبدأت بتحضير اللوازم التي طلبناها منها ومنها كتابي الجديد في نقد الحداثة الذي صدر ولم أره إلى الآن. كما أنني أوصيتُها بشراء قاموس آلي للترجمة الفورية من دار السلام، ، وكانت والدتي في المرة السابقة التي جائتنا فيها هنا قد أحضرت نسخة من القاموس لكن بسعر أقل إلى زوجتي أم فرحة، ولذلك أوصيتُها هذه المرة أن تجلب لي نسخة من القاموس إلى هنا.

وقد تفاجئنا في اليوم ذاته باتصال من قبل دائرة المنفى يعلمنا بأن مقابلة الوفد ستكون في منتصف شهر شباط القادم _ إن شاء الله _، أي في المدة التي ستكون فيها والدتي هنا في الأناضول، وهذا يعني أنها ستذهب معنا مرة أخرى إلى القسطنطينية مرة أخرى _ بإذن الله _.

وستكون هذه المقابلة _ إن شاء الله _ قبل يوم واحد من بدء الدوام في الفصل الثاني في قسم اللغة العربية في جامعة قرقّلا. وهذا يعني أنه سيمضي أكثر من شهر ونص من الآن من أجل أن أعود إلى إلقاء محاضراتي في الجامعة، لأنني اعتبارًا من هذا الأسبوع لن أذهب إلى الجامعة من أجل انشغال الطلبة بالامتحانات والتي ستعقبها

عطلة لمدة أسبوعين. أخبرني ذلك د. عبد الصبور والذي أكد لي أنهم سيقومون بامتحان الطلبة ولذلك لا داعيَ لحضوري قبل منتصف شهر شباط القادم _ إن شاء الله _.

انشغلت هذين اليومين بتتبع ما أعده أحد أهم المشاكل التي ينبغي الاحتياط لها عند وقوعها هنا في الأناضول. بدأت هذه المشكلة قبل ثلاثة أسابيع عندما أصيب سعد بمرض الإنفلونزا وكان مرضه قويًّا إلى حد ما وأقعده الفراش لمدة أيام. اتصل بي ذات ليلة وقال لي بأنه لم يعد في إمكانه الصمود أكثر أمام المرض وأنه يريدني أن أذهب معه إلى المستشفى. ذهبنا إلى طوارئ المستشفى مساء (يسمى هنا بالعاجل) وأخبرونا بتوقف نظام التأمين الصحي في دفتر الإقامة الخاص بسعد، لكن الطبيب ولأسباب إنسانية فقد أجرى الفحص الطبي اللازم له، وكتب له ورقة بالأدوية التي يتعين عليه تناولها لكي يشفى. كنا نحن المنفيين نتعرض إلى المشكلة ذاتها من وقت إلى آخر، وكنا نذهب إلى المؤسسة المسؤولة، وتسمى هنا (أس جي كي) من أجل معالجة المشكلة، وإعادة تفعيل النظام الخاص بالعلاج الطبي. ولذلك اتفقتُ مع سعد أن نعيّن يومًا بعد أن يتماثل للشفاء للذهاب إلى المؤسسة المذكورة من أجل حل المشكلة.

ذهبنا إلى المؤسسة المعنية بعد أيام وإذا بنا نفاجأ من قبل الموظف المختص بأن التأمين الصحي قد أُلغي، وأن لا علاقة بهم بعد الآن بنا. وقع الخبر علينا موقع الصاعقة، فهذا ما كنت أخشاه منذ أن قدمتُ إلى الأناضول أن يأتي اليوم الذي نبقى فيه بلا تأمين صحي، وها قد وقعتُ في المحظور! فقد أصيبتْ ابنتي فرحة بمرض الحمّاق، وعلى الأكثر كانت قد أصيبت بالعدوى من أحد الأطفال في الروضة،

فاضطررتُ إلى أخذها للمستشفى وتكلّف العلاج ثلاثين ليرة أناضولية، مع العلم أن المرض ليس بالخطورة التي تستحق كما أكدتْ لنا طبيبة الأمراض الجلدية يومها.

اتفقت مع سعد أن لا ندع الأمر يمر مرور الكرام وأن نتابع أمر التأمين الصحي بكل ما نستطيع. ذهبنا إلى الأَمْنيّات فأخبرونا أن لا علاقة لهم بالأمر. وذهبنا إلى مؤسسة الأوقاف التي سبقت أن أعطتنا خمسمائة ليرة أناضولية فلم يعطونا إجابة قاطعة حول الموضوع.

لكننا قمنا بإجراء آخر وهو أننا ذهبنا إلى مديرية النفوس في محافظة قرقّلا وكنا قبل أشهر قد سجّلنا أنفسنا وعوائلنا فيها، فأعدنا طلب ما يثبت تسجيلنا فيها، وذهبنا بعدها إلى والي قرقّلا حيث قدمنا على طلب إعانة مالية، وبعدها إلى (سوسيال ياردملاشما) التابعة لأوقاف قرقّلا، حيث قدمنا ورقة النفوس وأمر الوالي إلى المؤسسة من أجل استلام مائة ليرة أناضولية بعد أن تناهى إلى سمعنا أن عددًا من المنفيّين قد تسلّموها، وفعلًا فقد وجدنا مجموعة من المنفيّين هناك، وهم يتسلّمون صكوكًا بالمبلغ المذكور ليذهبوا بعدها إلى بنك الوقف لتسلم المبلغ. أخبرتنا الموظفة المسؤولة بأنه يتعيّن علينا مراجعة المؤسسة بعد أكثر من أسبوعين _ إن شاء الله _ حول الأمر ذاته.

ومن أجل التأكد بشكل قاطع من مسألة التأمين الصحي فقد اتفقتُ مع سعد أن نطلب من صديقه الأناضولي كنآن، وهو يعرف العربية لأنه كان يعمل في الحجاز مدرسًا لمدة ثلاث سنوات، أن يذهب معنا إلى (أس جي كي) وهي المؤسسة المسؤولة سابقًا عن نظام التأمين الصحي بالنسبة المنفيين، من أجل يستفهم منهم عن الأمر ونحن معه. وفعلًا ذهبنا في اليوم التالي إلى هناك معه وأخبروه أن لا علاقة لهم

بالأمر بعد الآن. وذهبنا إلى أيضًا إلى سوسيال ياردملاشما وأخبروه مثل ذلك. يومها كنتُ حزينًا جدًّا لأن ما أخاف منه قد وقع، وهو أن لا تأمين صحي بعد الآن.

لكني رأيتُ أحد المنفيّين، وهو أبو سالي، وهو أول عراقي تعرفتُ إليه بعد الحاج ميسر، لأنني رأيته هو وابن عمه إياد قرب المفوضية العليا لشؤون المنفيّين، كما ذكرتُ مسبقًا، وهما الذي اقترحا علي الإقامة في قرقّلا. المهم أني التقيتُه قرب سوسيال ياردملاشما وأخبرني أن التأمين الصحي لا زال ساريًا بالنسبة له ولعائلته لأنه قد ذهب بابنته إلى المستشفى قبل أيام وجرى الأمر على ما يرام. ظل الأمر مشكلًا بالنسبة لي ولسعد وقررنا أن نستسلم!

في الأيام اللاحقة بدأ الألم يتفاقم في كعب قدم زوجتي أم فرحة، وكان قرارنا أن نذهب إلى المستشفى الاختصاصي الذي كنا قد ذهبنا إليه في الشهر الأول من قدومنا إلى قرقّلا، وبالتحديد إلى قسم العظام فيه. فوجئنا عندما قدمنا الكملك أو دفتر الإقامة إلى سكرتيرة القسم أن النظام الخاص بالتأمين الصحي يعمل، وكان ذلك مبعث سرور بالنسبة لنا.

الأيام اللاحقة كانت قاسية من ناحية المناخ، فقد اشتد البرد بشكل كبير لأننا في منتصف شهر كانون الثاني، وهو بالطبع أبرد أيام السنة، واستمر هطول الثلج أيامًا عدة، كانت أقواها المرة الأخيرة ولذلك اكتست الشوارع والتلال والجبال وأسطح المنازل بالثلج حتى إذا هدأت العاصفة الثلجية أخذت زوجتي وابنتي إلى الحديقة القريبة من منزلنا، وأخذنا نصنع كرات من الثلج ونقذف بها على بعضنا، وكانت تلك اللحظات جميلة للغاية.

كذلك كانت لحظات وداع أستاذنا في المركز الثقافي جميلة ووداع الزملاء في المعهد فقد انتهت دورة اللغة الإنكليزية على خير والحمد لله، ودعانا أستاذنا أن لا ننسى الاتصال به عبر الهاتف أو الإنترنت.

وكان الأجمل منها أني تحدثتُ إلى والدي عبر الإنترنت ورأيتُه لأول مرة منذ سبعة أشهر، وحمدتُ الله _ سبحانه _ أنه بصحة جيدة، وأن معنوياته كانت عالية بالرغم من الظروف الصعبة التي مر بها خلال هذه الأشهر التي كنا في الأناضول خلالها. وحمدتُ الله أيضًا لما علمت أنه راضٍ عني، وأنه من الممكن أن يزورنا هنا في الأناضول _ إن شاء الله _ في المستقبل.

-٨-

استمر هطول الثلج خلال الأيام الماضية، أي في آواخر شهر كانون الثاني وبداية شهر شباط الحالي. وقد هطل الثلج للمرة العاشرة كما أتصوّر وكانت هذه المرة الأولى في حياتنا التي نرى فيها الثلج بهذه الغزارة.

كما أن شدة البرد قد زاد في تكاليف التدفئة من ناحية أخرى. فقد فوجئتُ في أحد الأيام وأنا أخرج من المنزل بموظف شركة الغاز وهو يعاين مقياس الغاز الخاص بشقتنا وإذا به يدفع لي الفاتورة الخاص بالغاز، وقد فوجئتُ وأنا أقرأ الفاتورة أن المبلغ المطلوب دفعه هو مائتان وأربع وأربعون ليرة أناضولية! وكانت فاتورة الماء قد وصلتنا قبل يومين أيضًا وكان المبلغ المطلوب دفعه هو عشرون ليرة أناضولية! وبذلك يصبح مجموع المبلغ هو مائتان وأربع وستون ليرة أناضولية! ولا زلتُ أنتظر استلام فاتورة الكهرباء إلى الآن! ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أنتظر أكثر لأنه يتوجب عليّ دفع الفواتير قبل نفاد المدة المطلوبة، وفعلًا ذهبت في اليوم نفسه إلى دائرتي الماء والغاز ودفعتُ المبالغ المطلوبة للفواتير.

مرت الأيام اللاحقة بسرعة كبيرة، وهذا ما جعلني أشعر بأن شعوري بالزمن صار أسرع من قبل بكثير. مرّ أكثر من شهر ونصف منذ أن اتصل بنا مكتب المنفيّين لإخبارنا بأن لدينا مقابلة في القسطنطينية مع الوفد الذي سيحدد النتيجة النهائية لقبولنا كمنفيّين من عدمه.

وكنتُ قد اتفقتُ مع والدتي من قبل على أن ترتب قدومها إلينا هنا في قرقّلا مع موعد ذهابنا إلى القسطنطينية من أجل المقابلة وبالفعل استطاعت والدتي أن ترتب أمورها في دار السلام من أجل القدوم إلى هنا قبيل الموعد المذكور.

بدأ الروتين ينكسر شيئًا فشيئًا فابنتي فرحة عادت إلى الدوام في الروضة بعد انقطاع دام تقريبًا لمدة شهر أو أكثر بسبب مرضها من ناحية ولأن الروضة كانت في عطلة أيضًا، فعادت يوم الجمعة الماضي إلى الدوام، وقد أخذتها في الصباح الباكر إلى الروضة كما كنا نفعل من قبل.

وبعد أن أوصلتُ فرحة إلى هناك ذهبت إلى مبنى الأَمْنيّات من أجل طلب إجازة للسفر إلى عمورية من أجل استقبال والدتي في كراج آشتي وإلى القسطنطينية للذهاب مع عائلتي من أجل المقابلة. وفعلًا وافق الرجال الطيبون هناك على منحي إجازة لمدة عشرة أيام من أجل ما طلبتُ.

ذهبتُ إلى الروضة قبل موعد خروج فرحة بنصف ساعة تقريبًا من أجل إحضار ابنتي من هناك وإعادتها إلى البيت من أجل أن ألحق بصلاة الجمعة وللذهاب إلى عمورية بعده لاستقبال والدتي. فصليتُ الجمعة في المسجد وتناولتُ طعام الغداء على عجل مع زوجتي وابنتي وودعتُهم منطلقًا باتجاه كراج قرقّلا ومنه قطعت تذكرة إلى عمورية.

انتظرتُ في عمورية لساعات قبل أن يصل الباص الذي يقل والدتي إلى كراج آشتي في عمورية والذي وصل في حدود الساعة العاشرة والنصف تقريبًا من مساء ذلك اليوم، وهذا يعني أن الحبيبة والدتي قد أنفقت يومين من عمرها وهي في الطريق إلى عمورية لا لشيء إلا لأنها مشتاقة لرؤيتنا ولتجلب لنا بعض الحاجيات من دار

السلام، وخصوصًا كتابي في نقد الحداثة الذي صدر حديثًا بدار السلام ولم أره إلى هذه اللحظة.

أخذتُ أقبّل والدتي وأشم رائحة المسك المنبعث من عطر أمومتها على الرغم من أن الثلج كان ينهمر على رأسينا، وشرعت والدتي أثناء ذلك بالبكاء... أخذنا بنقل الحقائب والأغراض التي أحضرتها والدتي من دار السلام إلى داخل المرآب ومن هناك إلى مكتب إحدى شركات النقل حيث نقلنا الباص إلى قرقّلا. وانتهزتُ فرصة الانتظار داخل الباص مع والدتي إلى إلقاء نظرة خاطفة على كتابي الذي صدر بدار السلام حديثًا، بالإضافة إلى بحث كنتُ قد ألقيتُه في أحد المؤتمرات بدار السلام، وقد نُشر البحث مع مجموعة من البحوث في مجلد واحد.

وصلنا إلى بيتنا في قرقّلا عند منتصف الليل تقريبًا، وأخذت أمي وزوجتي بتبادل القبلات والتحيات، وأيقظت زوجتي ابنتي فرحة التي كانت غاصّة في نوم عميق من أجل لقاء جدتها وأداء التحية لها.

استيقظنا من النوم صباح اليوم التالي، وتناولنا الفطور، وبعد أن أحسستُ من والدتي رغبة في الخروج من البيت لرؤية قرقّلا ذهبت أنا وإياها إلى سوق الخضار في قرقّلا والذي يفتح يوم السبت، وهناك تسوقنا كل ما نحتاج إليه خلال الأسبوع، وعدنا بعدها إلى بيتنا بأقصى سرعة ممكنة لأن أختي وفاء قد اتصلت بنا من المسرح الروماني وأخبرتنا بأنها تريد أن تلقانا على الإنترنت، فأجبناها لما أرادت. كما قمتُ في اليوم نفسه بحجز مقاعد لنا في مكتب إحدى شركات النقل في قرقّلا للذهاب إلى القسطنطينية يوم الإثنين، أي قبل يوم من موعد المقابلة مع الوفد.

في الصباح المبكر ليوم الإثنين خرجنا باتجاه مرآب النقل العام في قرقّلا، وانتظرنا إلى حدود الساعة الثامنة صباحًا إذ جاء الباص الذي سيقلنا إلى القسطنطينية،

وكالمرة السابقة تمتعنا برؤية المناظر الطبيعية الخلابة من قرقّلا وصولًا إلى القسطنطينية. ووصلنا مرآب النقل العام هناك في حدود الساعة الخامسة من اليوم نفسه.

استفدنا من الخدمة المجانية التي توفرها شركات النقل في الأناضول إذ تقوم بنقل المسافرين إلى أقرب نقطة في المنطقة التي يرغبون الذهاب إليها. وطلبتُ من السائق أن يقلنا إلى تقسيم وبالتحديد إلى قاسم باشا حيث يقع أحد الفنادق التي قمت بالحجز فيها فيما سبق، وقد تعرفتُ إلى عنوان الفندق المذكور عن طريق أحد الأخوة المنفيّين الذين سبقونا بالذهاب إلى هناك. أنزلنا السائق في تقسيم قريبًا من قاسم باشا وعن طريق السؤال المتكرر للأناضوليّين وصلنا إلى الفندق المذكور.

دفعتُ إلى مسؤول الاستعلامات في الفندق مبلغ خمس وسبعين ليرة أناضولية وهو المبلغ المطلوب لقاء مبيتنا في إحدى غرف الفندق، وتقع في الطابق الخامس منه. كانت السماء ماطرة ليلتها، ولذلك لم نتمكن من التجول في القسطنطينية، ولكنا ذهبنا إلى مركز تسوق قريب من الفندق لشراء بعض الحاجيات، وذهبتُ بعدها إلى المسجد المجاور من أجل أداء الصلاة هناك.

نمنا مبكرين من أجل الاستيقاظ في الصباح الباكر للذهاب إلى دائرة المنفى في القسطنطينية بالقرب من أمريكان هاستانه. وفعلًا استيقظنا مع صلاة الفجر، وتناولنا الفطور، وبعدها استأجرنا إحدى سيارات النقل الخاص للذهاب إلى الدائرة المذكورة.

وصلنا في وقت مبكر، وفتح لنا الباب للدخول إلى داخل المبنى، وانتظرنا في قاعة المبنى في الأسفل إلى أن نودي علينا لمقابلة الوفد. قابلنا الوفد، وبعد ساعة ونصف غادرت الغرفة، عائدًا إلى القاعة التي كنا فيها للمرة الأولى، وقبيل الساعة الخامسة مساء سمح لنا بالخروج من المبنى.

تعرّفنا إلى أحد المنفيّين واسمه سليم، وكان على موعد للقاء الوفد أيضًا، ووعدنا بأنه سيرشدنا إلى طريق العودة إلى مرآب النقل العام. وفعلًا أرشدنا إلى الطريق المؤدي إلى الميترو، وهو قطار الأنفاق في القسطنطينية، ونزلنا في المحطة التي تنتهي إلى ميدان تقسيم، حيث أخذنا الباص الذاهب إلى مرآب النقل العام، ومن هناك قطعتُ تذاكر في إحدى الشركات للذهاب إلى قرقّلا، والتي وصلنا إليها قبيل صلاة الفجر.

استغرقنا في النوم بعد صلاة الفجر، إلى قبيل الضحى. ثم خرجنا أنا ووالدتي إلى السوق من أجل التبضع ببعض الهدايا التي تريد أمي أخذها إلى بعض الأقارب في دار السلام.

وكذلك فعلنا صباح يوم الخميس، وهو اليوم الذي كان مقررًا لوالدتي فيه للذهاب إلى دار السلام بإحدى شركات النقل الأناضولية. صباح ذلك اليوم ذهبتُ أيضًا مع والدتي إلى السوق من أجل التسوق. بعدها عدنا إلى البيت من أجل أخذ أغراض والدتي، وكالعادة كان الوداع حزينًا بالنسبة لنا، فشرعت زوجتي أم فرحة بعناق والدتي وأجهشت بالبكاء.

انطلقنا إلى مرآب قرقّلا، ومنه استأجرنا إحدى شركات النقل التي أقلتنا إلى عمورية، ومكثنا في مرآب آشتي إلى حدود الساعة الخامسة، حين جاء الباص الذي رحلت فيه أمي الحبيبة الغالية إلى الوطن.

احتضنتُ والدتي وقبلتُها من وجنتيها ومن يديها، وانطلق بها الباص مسرعًا إلى الوطن.

عدتُ بعدها إلى قرقّلا، وكانت زوجتي بانتظاري، فيما كانت ابنتي فرحة تغص بنوم عميق.

يوم الجمعة اللاحق، ذهبتُ في الصباح الباكر من أجل إيصال ابنتي فرحة إلى الروضة، ثم بعدها إلى الأَمْنيّات حيث وقعتُ التوقيع الأسبوعي المطلوب. وكنتُ على موعد سابق مع الشيخ أبي عبد الرحمن للذهاب معًا إلى دائرة الاتصالات الحكومية فرع قرقّلا من أجل أن يتأكد أن المبالغ التي يدفعها لقاء الاستفادة من خدمة الإنترنت هي مبالغ صحيحة، وليس ثمة خطأ في المبلغ المطلوب الذي دفعه في المرة السابقة. وفعلًا كان، فقد تأكد بما لا يقبل الشك لديه بأن المبلغ المدفوع في المرة السابقة هو مبلغ صحيح، وهو بالضبط المبلغ المطلوب عن المدة السابقة التي استخدم فيها الإنترنت.

في يوم السبت التالي ذهبتُ مع عائلتي إلى سوق السبت، خصوصًا وأن الطقس هذه الأيام قد بدأ بالتغير، فقد بدأت درجات الحرارة ترتفع بشكل ملحوظ عن السابق، وإن لم يكن ذلك الارتفاع بالدرجة الكبيرة جدًّا، لكنه كان ملحوظًا. كان شهر كانون الثاني الماضي من أبرد الشهور التي مرّت بي في حياتي، ولكن آواخر شهر شباط الحالي قد بدأ الطقس يتغير، خصوصًا عند منتصف الظهر.

كنتُ قد خططتُ منذ صباح اليوم السبت لاصطحاب عائلتي إلى سوق السبت من أجل تغيير الأجواء، فقد مرت أيام منذ عودتنا من القسطنطينية لم تغادر فيها زوجتي أم فرحة المنزل. وفعلًا ذهبنا إلى هناك، وتبضعنا ما نحتاج إليه من الفواكه والخضر، وعدنا بعدها إلى المنزل.

الأسبوع الماضي بدأ الدوام في الجامعة، وعاد الطلاب إلى مقاعد الدراسة، ولكني لم أستطع اللحاق بالدرس هناك نظرًا لذهابي إلى القسطنطينية، وكنتُ قد أخبرتُ الدكتور عبد الصبور بالأمر، وطلبتُ منه أن يحل مكاني في الدرس. ولكن هذا الأسبوع

ذهبتُ كالمعتاد إلى الجامعة، وألقيتُ الدرس على الطلاب، وكنتُ مسرورًا للغاية بهذا الأمر.

يوم الثلاثاء التالي، أوصلتُ ابنتي فرحة إلى الروضة في الصباح الباكر، ثم ذهبتُ بعدها إلى الأَمْنيّات حيث وقعتُ في سجل الحضور، وعدتُ بعد الظهر لاصطحاب ابنتي من الروضة إلى البيت. وهكذا استمرت الأيام بعدها بشكل روتيني إلى الأسبوع التالي، حين ذهبت مرة أخرى للتدريس في الجامعة كما هو عليه الحال في كل أسبوع.

- ٩ -

وهكذا مرت الأيام حتى وصلنا إلى منتصف شهر آذار، حين بدأنا نحس بتغير الجو، فقد بدأ البرد ينحسر بشكل تدريجي وإن كان الجو لا يزال باردًا بالنسبة لنا لأننا لم نعتد مثل ذلك من قبل. وقد علمتُ من الدكتور عبد الصبور يومًا ما حين ذهبتُ إلى الجامعة، والتقينا في مكتبه، أن الأناضوليين لم يمروا بمثل هذا البرد منذ تسع سنوات. وهذا الأمر سمعتُه من الأستاذ قلنج وهو معيد يحضر للماجستير في اللغة العربية في جامعة قرقّلا، حيث ألقي محاضراتي في درس اللغة العربية، أخبرني أيضًا أن هذه السنة باردة أيضًا بالنسبة لهم جدًّا بالمقارنة مع السنين الماضية. وهذه القصة سمعها سعد من الحاج مصطفى أيضًا. فقد أخبره أن هذه السنة باردة جدًّا، فكل سنة يتركز البرد في شهر واحد، ولكن هذه السنة قد زاد عن المعدل الذي شهدته الأناضول خلال السنوات الماضية. وبالرغم من ذلك، فقد كانت هذه فرصة بالنسبة لنا من أجل التعود على درجات البرودة المنخفضة، وهذا ما يمكننا من التعود على ذلك أينما ذهبنا _ إن شاء الله _.

رافق تغير المناخ ظهور مفاجأة، وإن كانت مُتوقَّعة، فقد تمت الموافقة النهائية على طلبنا في النفي، وقد اطّلعت زوجتي أم فرحة على ذلك بينما كانت تتابع آخر التحديثات التي تظهر على لوحة نتائج طلبات المنفى في الإنترنت.

بادرتُ من فوري على الإتصال بوالدتي لإخبارها بالخبر، وقد بادرت لتخبرني أنها قد سعدت بذلك أيما سعادة، وكان من سعادتها أنها اتصلت صباح يوم الجمعة التالي لتخبرني أنها لا زالت فرحة!

يوم الثلاثاء التالي ذهبت كالعادة إلى الجامعة لإلقاء محاضراتي في اللغة العربية، لكن ذلك اليوم لم يكن أبدًا عاديًّا بالنسبة لي على الأقل. فقد مرت بي ثلاث مفاجأت خلال اليوم:

أولاها: أنني عندما خرجت الظهر من المنزل قاصدًا الجامعة، تفاجأتُ بحرارة الشمس غير المعتادة منذ أشهر، ولما نظرتُ إلى مقياس الحرارة وهو أمر معتاد في شوارع الأناضول تفاجأتُ بأن درجة الحرارة في أحد المقاييس قد وصلت إلى سبع وثلاثين درجة!

وثانيها: أني أثناء إلقاء الدرس على الطلاب تحول الحديث باتجاه القرآن الكريم، وإذا بي أُفاجأ بأن إحدى طالباتي، واسمها جلنار، تحفظ القرآن الكريم كاملًا من الفاتحة إلى سورة الناس، وكاد قلبي يطير من الفرح بذلك، فقد كنتُ أحس بأن هذه الطالبة مميزة عن باقي الطالبات في تفوقها الدراسي، وها هي الآن تتفوق عليهم في حفظ كتاب الله _ عز وجل _!

وثالثها: أن أحد طلابي، واسمه جميل، وهو يتكلم اللغة العربية باللهجة الشامية، وكان منذ مدة قد أخبرني أن أصوله عربية، وأنه يسكن مع أهله في محافظة هاتاي جنوب الأناضول. أخبرني اليوم أنه من عشيرة بني جميل، وكنتُ من قبل قد سمعتُ بهذه العشيرة في الوطن. طلب مني معلومات عن عشيرته فذهبنا إلى غرفة الدكتور عبد الصبور إذ أن لديه حاسبة إليكترونية وخط إنترنت في مكتبه، ولما بحثنا عن أصل عشيرة بني جميل إذا بنا نفاجأ بأن عشيرة بني جميل من الذراري التي تعود في نسبها إلى سيدنا الإمام الكاظم!

بدأتُ أحس بعد عودتي إلى المنزل في ذلك اليوم بمرض النزلة الشعبية أو الإنفلونزا قد بدأ يدب إلى أوصالي، وتفاقم المرض خلال الأيام الآتية بشكل كبير،

وارتفعت حرارتي، وتزامن مع إصابتي بالمرض إصابة ابنتي فرحة بالمرض نفسه، والذي استمر لأيام عدة، ولم نُشفَ منه إلا بعد مرور أكثر من أسبوع، وقد تولت زوجتي أم فرحة رعايتنا أثناء ذلك. وبالكاد استطعتُ الذهاب إلى الجامعة هذا الأسبوع لإلقاء درس اللغة العربية على طلبتي، ولكنها المسؤولية والالتزام!

-١٠-

وأقبل الربيع مع قدوم شهر نيسان، وتغير الطقس إلى حد كبير، وبدأت الأزهار بالتفتح، والأشجار أخذت تكتسي حلة خضراء، وقد تفاجئنا بها مندهشين. أخذت الطبيعة في قرقّلا بالتغير بشكل فجائي وسريع، على طريقة لم ألحظها من قبل في أي مكان آخر، على كثرة ما شاهدت من بلدان الدنيا خلال سفراتي السابقة.

ومرت بنا خلال ذلك حوادث تتعلق بطيبة الشعب الأناضولي، هذه الطيبة التي صارت بالنسبة لنا شيئًا مؤكدًا وأمرًا واقعًا منذ وقت طويل.

كانت أولى هذه المواقف هو أن سعد قد انقطع عن زيارتي طيلة المدة السابقة، وقد أكد لي أنه بسبب مرض الإنفلونزا الشديد الذي أُصبتُ به فهو لم يستطع زيارتي خشية من الإصابة بالعدوى، وهو ما يخشاه، وأكّد لي بأنه حال تماثلي للشفاء سيأتي مع زوجته وأطفاله إلى منزلنا لزيارتي. وفعلًا بعد أن أكّدتُ له أنني قد تماثلتُ للشفاء بشكل نهائي جاء لزياراتنا هو وعائلته.

قصوا علينا خلال تلك الزيارة المزيد عن الخدمات التي كان الحاج مصطفى الأناضولي الذي يعمل معه سعد بأجر يومي لا يزال يقدمها لهم. فعلاوة على أن الحاج مصطفى غير محتاج إلى عمل سعد معه لأن لديه عاملًا أناضوليًّا يعمل معه منذ سنين وهو يؤكد دائمًا أن هذا العامل الأناضولي هو بمثابة ابن له، لكنه مع ذلك قرّر أن يشغل سعد معه رغبة في نيل الأجر والثواب من الله _ سبحانه _. فضلًا عن ذلك،

فهو يعمل على توفير الكثير مما يحتاجونه من طعام وأغذية، وكان يدفع أي فاتورة دواء يتقدم بها سعد له، وهو ما حصل بالفعل أمامي ذات مرة.

وقد حصلت بعض التطورات في قضية طلب سعد المنفى من المفوضية لشؤون المنفيّين. فقد تقدم سعد بطلب إلى (البعثة الدينية) منذ مدة لمساعدته في الاتصال بالمفوضية المذكورة لأنه قد مرت مدة طويلة ولم تحسم قضيته في المنفى. وفعلًا عملت (البعثة الدينية) على الاتصال بالمفوضية ولكن لم يحصل شيء يذكر إلا إن المفوضية اتصلت به، وطلبت منه أن ينتظر، وسألهم إلى متى ينتظر، فقالوا: إلى أمد غير معلوم!

المهم، جاء فيما بعد وفد المفوضية إلى قرقّلا وتحديدًا إلى مبنى الأَمْنيّات، وازدحم المنفيّون هناك بشكل كبير من أجل تسجيل أسمائهم عند وفد المفوضية على أمل الحصول على معونات شهرية قد تُدفع لهم من قِبَل المفوضية أيضًا. وبالطبع لم أسمع بهذه الحادثة، ولم يتصل بي أحد لكي يخبرني عنها، لأني منذ مدة طويلة لم أعد أتصل بالمنفيّين، بسبب المشاكل الكبيرة التي بدأت بالحصول بينهم، فضلًا عن المرض الذي أقعدني في الفراش طيلة المدة السابقة.

أما علاقة مجيء هذا الوفد بطيبة الشعب الأناضولي وهو موضوع حديثًا الآن، فهو إن هذا الوفد جاء بصحبة فريق من الشرطة أو الأَمْنيّات في قرقّلا، وهو ذات الوفد الذي أعانني في أمور كثيرة، وساعد الكثير من المنفيّين في مجالات مختلفة، وكل بحسب حاجته. حتى أن سعد قد قصّ عليّ أيضًا أن ابنته تعرضت إلى حادث بسيط في المدرسة، فاتصلت به مديرة المدرسة وأخبرته بضرورة الحضور إلى المدرسة. كانت ابنته تشكو من ألم في ساعدها بسبب لعبها مع الأطفال، وهنا اقترحت المديرة أن يذهب إلى الأَمْنيّات من أجل الحصول على طريقة تساعده للذهاب إلى المستشفى.

ذهب إلى الأَمْنيّات وعلم مدير القسم الأجنبي فيها بالحادث، وهنا وجه المدير على عجل بخروج دورية شرطة مع سعد صحبته إلى المستشفى، ولم يهدأ بال المدير إلا بعد أن تأكد أن ابنة سعد على ما يرام.

الموقف الثاني الذي حصل لي مع طيبة الشعب الأناضولي هو أن الاستاذ عبد الصبور قد اتصل بي قبل أيام وأخبرني برغبته هو وعائلته دعوتنا إلى تناول الشاي معهم في المنزل يوم الأحد وهو يوم عطلة هنا في الأناضول. واتفقتُ معه أن ننتظره بالقرب من الحديقة العامة في مركز مدينة قرقّلا. وبالفعل جاء الدكتور عبد الصبور في الموعد وأخذنا بسيارته إلى منزلهم وهو يقع بالقرب من الجامعة، وكان معنا في هذا اللقاء الأستاذ قلنج وهو معيد في قسم اللغة العربية، والأستاذ محمد وهو يحضر للماجستير في قسم اللغة الفارسية.

وكالعادة لم نتفاجأ بطيبة الشعب الأناضولي، فقد أكرمنا الدكتور عبد الصبور بما يدل على طيبة وكرم وحفاوة بالضيوف. وكانت زوجتي قد جلست مع زوجته والأطفال في غرفة مستقلة وبقينا على هذه الحال حتى أعادنا الدكتور عبد الصبور إلى منزلنا بعد الساعة العاشرة مساءً.

بقينا أنا وزوجتي حتى منتصف الليل تقريبًا نتحدث عن طيبة ما رأيناه في عائلة الدكتور عبد الصبور. فقد حدثتني أن زوجته قد بالغت في إكرامها، وقد دعت إحدى جاراتها وهي تعرف اللغة الإنكليزية ومولودة في ألمانيا ولديها الجنسية الألمانية والأناضولية للحديث مع زوجتي. وكان الجميع سعداء بهذا اللقاء، وقد دعونا إلى لقاءات جديدة _ بإذن الله _.

وكان من ضمن المواقف التي عمّقت فهمي لطيبة الشعب الأناضولي أن الأستاذ قلنج وهو معيد في قسم اللغة العربية في جامعة قرقّلا أخبرني بأنهم يريدون سيرتي

الذاتية بأقصى سرعة ممكنة، ولما سألته عن السبب، أجاب: بأنهم يريدون تقديمها إلى رئيس الجامعة من أجل البدء بإجراء تعيني، وقال لي: إنهم يحبون أن أبقى معهم. وكان هذا الموقف أحد أجمل المواقف التي مررتُ بها هنا خلال إقامتي في الأناضول. لكن مع الأسف كنتُ قد حزمتُ أمري منذ أمد بعيد على الاستمرار في طريق المنفى بالنظر إلى التخطيط الإستراتيجي الذي حسمتُ أمره منذ أمد بعيد!

وكان من ضمن المواقف التي مررتُ بها أيضًا والتي أكّدتْ لي طيبة الشعب الأناضولي أن الأستاذ أقطاي قد أرسل لي ولمرتين مبلغًا وصل إلى ستمائة ليرة أناضولية، وقد اتصلتُ به من أجل أن أشكره على طيبته ودعوت الله _ سبحانه _ أن يحفظه وأن يجزيه كل خير وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة.

-١١-

مرّت ثلاثة أشهر بالضبط على تلك المقابلة التي أجريناها في القسطنطينية في منتصف شهر شباط الماضي ونحن الآن في منتصف شهر مايس ولكن منظّمة المنفيّين في القسطنطينية إلى اليوم لم تتصل بنا من أجل تحديد الموعد القادم لإجراء الفحوصات الطبية هناك. طبعًا الأمر غير مريح بالنسبة لنا فقد ازداد قلقنا من أن يتجه الموضوع باتجاه مزيد من التأخير والتأجيل، وهذا ما يؤدي إلى مزيد من الإضعاف في موازنتنا المادية لأننا كنا قد حددنا الميزانية الخاصة بالمنفى في الأناضول منذ الوطن والتي بقينا نجمع لها منذ سنين عدة بانتظار اللحظة التي يصبح العيش فيها في الوطن شبه مستحيل. لا يقلقنا شيء في الأناضول مثل ما يقلقنا التأخير في إجراءات المنفى لأن هذا التأخير يؤدي إلى تآكل موازنتنا المالية بالتدريج.

زاد من قلقنا أيضًا أن العديد من الأخوة المنفيّين الذين قابلوا الوفد في المدة نفسها التي تمت مقابلتنا فيها من قِبَل الوفد أيضًا قد اتصلت بهم المنظمة لتحدد لهم موعد إجراء الفحوصات الطبية. فمثلًا اتصلوا بعائلة أبو ماجد ليبلغوهم بموعد الفحوصات بعد شهر ونصف فقط من مقابلة الوفد، واتصلوا بعائلة فاخر وقد قابل الوفد بعدنا بيومين في منتصف شهر شباط الماضي ونحن لم يتصل بنا أحد.

حتى سعد، فقد اتصلت به الأمم المتحدة بعد انتظار دام لأكثر من عشرة أشهر لتخبره بأنه تم تحديد موعد جديد لمقابلته _ إن شاء الله _ في مفوضية المنفيّين، وتم الاتصال به الأسبوع الفائت أي في الأسبوع نفسه الذي اتصلوا به مع فخري وبقية

المنفيّين ولكن للأسف لم يتصلوا بنا إلى الآن. حتى إن هذه الأشهر الثلاثة قد شهدت منح تذاكر الطيران للكثير من المنفيّين من أجل الذهاب إلى المنفى النهائي، فقد سافر أبو طه وعائلته، وأبو ساجد وعائلته، وأبو علي وعائلته، ودكتور حسن وعائلته، وصافي وعائلته (وهو يعمل في البعثة الدينية)، وأبو ميسر وعائلته، وهؤلاء فقط ممن كنتُ أعرف أو التقيتُهم في قرقلا فقط!

بالطبع راودتني الظنون الكثيرة وزادت هذه الظنون حين اتصلتُ بالمنظمة في القسطنطينية مرتين خلال أسبوعين ولكنهم كانوا في كل مرة يقولون بأن لديك فحوصات طبية ولكن الى الآن لم يتم تحديد الموعد. ولم يكن أمامنا إلا الصبر والترقب والانتظار، والدعاء لله _ سبحانه _ بأن يفرج عنا الغمة، وأن ييسر لنا ويقدر لنا الخير حيث كان ثم يرضنا به _ سبحانه _، وكانت والدتي بالطبع مستمرة بالدعاء منذ أن قدمنا إلى الأناضول إلى اليوم، وهي تدعو الله _ سبحانه _ لنا خلف صلواتها الخمس وفي جوف الليل.

وخلال مدة الانتظار هذه لم تنقطع علاقتي لا بسعد ولا بالشيخ أبي الرحمن، فسعد بعد أن اتصلت به مفوضية المنفيّين عادت إليه روحه المعنوية التي جاء بها أول مرة إلى الأناضول، وصار يأتي إلينا مع عائلته بانتظام تقريبًا خلال عطلة نهاية الأسبوع. وكنا نذهب بانتظام تقريبًا إلى الشيخ أبي عبد الرحمن الذي اتصلت به مفوضية المنفيّين أيضًا وتم إعلامه بأنه ستتم مقابلته وعائلته للمرة الثانية في مبنى المفوضية في عمورية مرة أخرى خلال شهر حزيران القادم. وكانت هذه إحدى الأمور السارة بالنسبة لهم، هذا بالإضافة إلى أنه رزق خلال الأيام الماضية بابنة جميلة للغاية أسماها راقية.

أما عن التدريس في الجامعة، فقد بدأ العام الجامعي بالانتهاء، فلم يتبقَّ منه إلا أسبوع واحد قبل أن تبدأ امتحانات نهاية العام.

وغير ذلك الكثير جدًّا والذي يعبر عن العلاقة الأخوية القوية بين اللغتين العربية والأناضولية، وفّق الله _ سبحانه _ كل الأخوة في كل زمان ومكان من تحقيق التعاون واستعادة الدور الريادي للتاريخ المشرق بين أمم الأرض المختلفة.

كان هذا الاكتشاف واحدًا من الاكتشافات العلمية الهائلة، بفضل الله، والتي توالت هنا في قرقّلا. فقد أعدتُ ترتيب مكتبتي الإليكترونية استنادًا إلى العلوم، وكانت من قبل مرتبة ترتيبًا عشوائيًّا، وهي الآن تضم المؤلفات العمدة في العلوم الإسلامية والفلسفة وغيرها. وقد زاد اهتمامي بموضوع النشر الإليكتروني والمكتبة الافتراضية وذلك لأني أرى أن المستقبل هو للكتاب الإليكتروني.

-١٢-

توالت هذه الاكتشافات العلمية مع توالي أيام رحلة المنفى في الأناضول. وكان تعاقب الأيام قد مكّنني من رؤية أستاذي الدكتور عبد الله مؤنس والذي لم أره منذ ثلاث سنوات. علاقتي بشيخي مؤنس ليست علاقة تلمذة عادية بل أعدها علاقة أبوة وبنوة صار عمرها الآن ثلاث وعشرون عامًا. وقد امتدت منذ عام١٩٨٩ م إلى اليوم واخترقت كل مراحل الدراسة التي مررت بها منذ الدراسة المتوسطة فالإعدادية فالجامعية فالدراسات العليا الماجستير والدكتوراه ثم ما بعد الدكتوراه حين صرت أستاذًا في الحكمة الإسلامية. كيف أصف علاقتي بشيخي؟ هل أقول أنها علاقة ابن بأبيه (الروحي والعلمي والتربوي)؟ أم هل أقول: إنها بذرة زرعها الزارع فأثمرت؟ أم هل أقول: إنني حسنة من حسناته؟ أم هل أقول: إنها كل ذلك؟ نعم، هي كل ذلك وأكثر.

منذ أن قدمتُ إلى الأناضول وأنا اتصل بشيخي بشكل منتظم، وكان آخر اتصال بيني وبينه عبر رسائل الهاتف حين أبلغني الشيخ بأنه سيلقاني قريبًا وطلب مني إعداد بحث عن الإمام النورسي وفعلًا كتبتُ البحث وكنتُ أنتظر إشارة الشيخ من أجل إرساله إلى جهة معينة، لكن الشيخ بعد أن وصل إلى الأناضول أخبرني أن البحث سيقدم إلى مؤتمر آخر غير الذي سأحكي تفاصيله هنا.

استلمتُ رسالة من الشيخ يخبرني فيها أنه سيصل إلى القسطنطينية بعد مدة موجزة. وفهمتُ من خلال الرسالة هذه أنه في الطائرة التي ستقلّه إلى القسطنطينية وأنه سيصل إليها في اليوم نفسه. وصل الشيخ فعلًا وكان يوم وصوله هو الجمعة، وأردتُ أن أعلم منه عن موعد وصوله إلى عمورية من أجل حضور المؤتمر فيها، فأخبرني

أن المؤتمر سيأتي إلى عمورية في يوم السبت التالي أما المؤتمر فسيعقد في يوم الأحد الذي يليه.

ذهبتُ إلى مبنى الأَمْنيّات في قرقّلا من أجل آخذ رخصة للذهاب إلى المؤتمر وفعلًا حصلتُ على إجازة لمدة ثلاثة أيام. ذهبتُ يوم السبت التالي إلى عمورية بالقطار ولكني فوجئتُ لما وصلت إلى هناك أن الشيخ يتصل بي ليخبرني بأنهم سيصلون إلى عمورية عصر اليوم وأنهم سيذهبون إلى الفندق مباشرة ولذلك طلب مني العودة إلى المنزل في قرقّلا وأن أعود في يوم الأحد التالي إلى عمورية من أجل حضور المؤتمر الدولي الذي سيعقد في قاعة الملعب الملاصقة لمحطة القطار في أولس في عمورية. وبالفعل عدتُ إلى البيت على أمل لقاء شيخي في اليوم التالي في المؤتمر.

صلّيتُ الفجر في اليوم التالي وغادرتُ البيت على عجل من أجل اللحاق بالقطار الذهاب إلى عمورية عند الساعة الخامسة والدقيقة الرابعة والخمسين. وانطلق القطار بي يذرع التلال والجبال ويخترق الكهوف على طول الطريق الواصل بين قرقّلا و عمورية.

وصلتُ إلى عمورية في حدود الساعة الثامنة صباحًا، وانطلقتُ مسرعًا باتجاه قاعة الملعب، وقد تفاجأتُ بشكل كبير لما دخلتُ قاعة الملعب لأني كنتُ أتصوّر أن المؤتمر عبارة عن حدث صغير وإذا بي أتفاجأ بأن المئات قد حضروا المؤتمر. وانتظرتُ قليلًا وإذا بي أرى شيخي يدلّه أحد الأخوة الأناضوليين على مقعده في الصف الأول في قاعة المؤتمر.

ألقيتُ السلام على شيخي الحبيب الذي لم أره منذ ثلاث سنوات وقبّلتُ يده وطلب مني الشيخ الجلوس قريباً منه. طبعًا كان الحضور هائلًا فاستطعتُ بالكاد تحصيل مقعد يقع في وسط القاعة. استمرتُ فعاليات المؤتمر إلى منتصف الظهر تقريبًا، حين

ذهبتُ بصحبة شيخي إلى تناول الطعام في عمورية في أحد مطاعمها الراقية وبالسيارات المخصصة لفعاليات المؤتمر. تناولتُ الغداء مع شيخي وبصحبة عدد من الأخوة المنفيّين ودار بيني وبين شيخي حوار حول وضع الوطن ووضعي الشخصي وعائلتي والأخوة القدامى في الوطن. صلينا الظهر وعدنا بالسيارات ذاتها إلى قاعة المؤتمر.

انتهى المؤتمر عند الساعة السادسة مساءً وذهبت مع شيخي لتناول طعام العشاء في أحد مطاعم عمورية الراقية، واستمر تناول طعام العشاء إلى ما بعد صلاة المغرب حين صليتُ المغرب وبدأتْ الوفود تغادر المطعم وهنا قبّلتُ يد شيخي الحبيب مودعًا إياه على أمل اللقاء قريبًا _ إن شاء الله _.

وكان شيخي قد أخبرني من قبل عن مؤتمر سيعقد في القسطنطينية بعد مدة ثلاثة أسابيع _ إن شاء الله _، وطلب مني من قبل إعداد بحث للمشاركة في المؤتمر وفعلًا أعددتُ البحث واتصل بي الشيخ بعد يومين تقريبًا مع أحد المعدّين للمؤتمر واسمه حسّان صالح لحضور المؤتمر وأرسلتُ بحثي على البريد الإلكتروني للشيخ وللأستاذ حسّان.

غادر شيخي الأناضول بعد أيام وكان الوداع على أمل اللقاء دائمًا _ إن شاء الله _.

شهدت الأيام اللاحقة حدثًا مهمًّا جدًّا بالنسبة لنا، ألا وهو حدث تخرج ابنتي فرحة من الروضة. بدأت الاستعدادات لتخرج الأطفال في الروضة منذ مدة فقد اشترينا ملابس لإبنتي فرحة ودفعت خمس وعشرين ليرة أناضولية من أجل تصميم ملابس فرحة على هيئة دجاجة وهذا ما فهمناه من المعلمة الست سميرة.

دُعينا إلى حضور الحفل المقام في قاعة المركز الثقافي في قرقّلا وتخلل الحفل تقديم العروض التي استعد لها الأطفال، حتى إذا جاء دور ابنتي فرحة خرجت علينا بلباس الدجاجة وأدت الدور بإتقان حالها كحال بقية الطلبة الأطفال معها، وأخذت زوجتي أم فرحة تبكي على ابنتنا لأنها في تلك اللحظات تذكرت الغربة التي نحن فيها!

مرت الأيام اللاحقة وأنا أجري تحضيراتي لحضور المؤتمر الذي سيعقد في القسطنطينية عن الأستاذ النورسي والذي كان شيخي الشيخ عبد الله مؤنس قد أخبرني عنه وطلب مني إعداد بحث عنه منذ أشهر. بالطبع كنتُ قد حضّرتُ بحثًا عن الأستاذ النورسي، واتصلتُ بالشيخ على إثرها وأخبرتُه بالأمر فطلب مني انتظار الجواب.

اتصل بي الشيخ فيما بعد من هاتف الأستاذ حسّان صالح أحد أبرز مترجميْ رسائل النور في العالم والذي استفسر بدوره عني وعن بحثي فأجبتُه بدقة، لكني لم أكن أعلم أن المتصل هو الأستاذ حسّان صالح.

اتصلتُ بالاستاذ حسّان صالح بواسطة الإيميل وأرسلتُ له بحثي ولشيخي أيضًا، وتمّت الموافقة، والحمد لله على البحث، وطلب مني الحضور إلى القسطنطينية للمشاركة في المؤتمر يوم الجمعة القادم.

ذهبتُ يوم الخميس إلى مبنى الأَمْنيّات في قرقّلا وطلبتُ منهم رخصة للذهاب إلى القسطنطينية، وبالفعل حصلتُ عليها، وقامت زوجتي أم فرحة بإعداد حقيبة ملابسي لأن من المفروض أن أبقى في القسطنطينية إلى يوم الثلاثاء القادم. لم أستطع الحصول على دعوة لإحضار عائلتي معي إلى القسطنطينية ولذلك قررتُ الذهاب إلى القسطنطينية لوحدي على أن أترك عائلتي لوحدهم في المنزل.

مساء يوم الخميس ذهبت إلى القسطنطينية مستقلًا الباص الذي حجزتُ تذكرته صباح اليوم نفسه. سار الباص الليل كله إلى القسطنطينية لكني لم أحس بمسيره إلا

يسيرًا لأني استغرقتُ في نوم عميق إلى أن وصلنا إلى أوتوغار القسطنطينية في الساعة السادسة صباحًا. وبالطبع لم يكن من اللائق أن أتصل بموظفي مؤسسة القسطنطينية الثقافية في الصباح الباكر ولذلك أخذتُ جولة في الأوتوغار لمدة ثلاث ساعات تناولتُ فيها طعام الفطور وعكفت في المسجد على مطالعة بعض الكتب التي جلبتُها معي إلى القسطنطينية. انتظرتُ حتى الساعة التاسعة حتى جاء أحد الأخوة من المؤسسة لاصطحابي إلى المؤسسة. وما أن وصلتُ إلى هناك حتى التقيتُ بعدد من الأخوة من شتى الأقطار والتقيتُ ولأول مرة بالطبع بالأستاذ حسّان صالح.

مرّت نصف ساعة على ما أذكر حتى نزل شيخي الدكتور عبد الله مؤنس مع أولاده الذين لم أرهم منذ ثلاث سنوات، وقد كبر الأولاد خلالها والحمد لله، وكم اشتقتُ لرؤية الشيخ ورؤيتهم، وقد أنعم الله _ سبحانه _ عليّ بلقياهم من جديد.

صلّينا صلاة الجمعة في جامع الفاتح في القسطنطينية مع الأخوة المشاركين ثم عدنا إلى المؤسسة فتناولنا الغداء، ثم عند الساعة السادسة مساءً أخذنا الباص إلى الفندق وقد كان فندقًا فخمًا وبخمس نجوم. تناولنا العشاء عند الساعة السابعة مساءً ثم جرت جلسة للتعارف التقينا خلالها بجميع المشاركين في المؤتمر، وتم تقسيم المشاركين في النهاية إلى فئتين فئة تحضر الجلسات العربية وفئة أخرى تحضر الجلسات الأجنبية، وبالطبع قررتُ الحضور ضمن الجلسات العربية لأني شيخي موجود فيها.

ذهبت إلى غرفتي مساءً واتصلت بزوجتي أم فرحة وأخبرتُها بما دار هذا اليوم، ثم أخلدتُ إلى نوم عميق!

تناولنا الفطور عند الساعة السابعة صباحًا، ثم حضرنا جلسات المؤتمر إلى الظهر، وتناولنا طعام الغداء، ثم عدنا إلى قاعة المؤتمر لحضور بقية جلسات المؤتمر، وهكذا إلى المساء. واستمرت جلسات المؤتمر في اليوم الثاني أيضًا وختم المؤتمر بأن

أخذتنا الحافلات إلى قصر تابع لأحد أثرياء القسطنطينية حيث تناولنا طعام العشاء وتسلمنا الجوائز الخاصة بالمشاركة في المؤتمر.

غادرنا الفندق صباح اليوم التالي بعد الساعة العاشرة صباحًا عائدين إلى مقر المؤسسة بالقرب من الفاتح، بانتظار أن تأخذنا الباصات إلى مضيق البسفور عند العصر. وهنا، والحمد لله، استفدت من الوقت بالذهاب مع عدد من الأخوة لرؤية عدد من المشاهد البارزة في القسطنطينية فرأينا قبر السلطان عبد الحميد الثاني، ومسجد السلطان أحمد، وجامع آيا صوفيا، وذهبنا بعدها إلى قصر طوب قابي حيث رأينا الآثار الخاصة بالخلفاء العثمانيين، وذهبنا إلى القاعة المخصصة لرؤية الآثار الإسلامية، حيث رأينا الآثار الخاصة بالأنبياء، فرأينا عصا سيدنا موسى _ عليه السلام _، وإناء سيدنا إبراهيم _ عليه السلام _، وعمامة سيدنا إبراهيم _ عليه السلام _، وبقية ذارع سيدنا يحيى _ عليه السلام _. وانتقلنا لرؤية آثار النبي _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فرأينا شيئًا من لحيته الشريفة، وسيفه _عليه الصلاة والسلام _. كما رأينا آثار الخلفاء الراشدين _ رضوان الله عليهم _، مثل سيف أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب _ رضي الله عنهم _. ورأينا أيضًا عددًا من أسياف الصحابة مثل سيف الزبير بن العوام، وعمار بن ياسر، وجعفر الطيار. ورأينا جبة الزهراء _ عليها السلام _ وسجّادتها، وجبّة الحسين بن علي _ رضوان الله وسلامه عليه _.

طبعًا لم أتمالك نفسي فشرعتُ في بكاء عميق وأنا أرى هذه الآثار!

عدنا إلى المؤسسة، ثم تم نقلنا بالحافلات إلى جزر الأميرات، حيث انتقلنا إلى الباخرة المخصصة لنا، وكان رحلة في مضيق البسفور من أجمل ما مر في حياتي،

خصوصًا وأني كنتُ بالقرب من شيخي أتبادل الحديث معه حول أهمية القسطنطينية الإستراتيجية.

عدنا إلى المؤسسة مساءً، وكنتُ قد قررتُ _ بإذن الله سبحانه _ أن أعود إلى البيت في الليلة ذاتها، فودعتُ شيخي على أمل أن ألتقيه مجددًا على خير _ إن شاء الله _، كما ودعتُ عددًا من الأخوة وعدتُ إلى أوتوغار القسطنطينية، ومنه أخذتُ الباص إلى عمورية، والتي وصلتُها في الصباح الباكر، ومنها ذهبتُ إلى قرقّلا مباشرة، حيث التقيتُ عائلتي وكأني لم أرهم منذ سنين!

-١٣-

مرت هذه الأيام سنة على قدومنا إلى الأناضول وإلى قرقّلا بالتحديد، مرت كأنها لحظة، ووالله الذي لا إله إلا هو، لقد مرّت هذه السنة كأنها يوم واحد، ورأيتُ بأم عيني كيف أن العلم النافع بدأ يقبض، وكيف أن الفتن قد ظهرت وعمت البلدان، وزاد البخل وهو الشح، وكثر الهرج.

وهذا يعني أنه قد مرت سنة من عمري وعمر زوجتي وابنتي قضيناها هنا في وطن المنفى بانتظار إعادة النفي! أحسسنا بمرور هذه السنة ونحن نشتري قطعة من الكعك والحلوى ونحتفل ابتهاجًا بابنتنا فرحة!

وبعدها بأيام ذهبنا الى القسطنطينية من أجل إجراء الفحوصات الطبية اللازمة للسفر الى المنفى النهائي، فقد اتصل بنا مكتب المنفى في عمورية، وأعلمونا بموعد الفحوصات، وفعلًا ذهبنا في الموعد المحدد. تم اجراء الفحوصات الطبية في المستشفى الأمريكي، في أول يوم، وأعقب ذلك دورة لمدة ثلاثة أيام، وإقامة في فندق في القسطنطينية على حساب المنظمة في القسطنطينية. كانت أيامًا جميلة تلك التي قضيناها في القسطنطينية، ففي الصباح كانت الدورة التدريبية، وفي المساء كان التجول في القسطنطينية، حيث ذهبنا في اليوم الثاني برفقة عدد من العوائل الوطنية في رحلة في مضيق البسفور، وكانت هذه المرة الأولى بالنسبة لزوجتي للركوب في باخرة والرحلة في البحر، وقد استمرت الرحلة لمدة ساعة ونصف في المضيق المذكور، وبالفعل كانت رحلة جميلة.

مرت الأيام اللاحقة بسرعة وعدنا الى عمورية ليلة أن أعلن أن يوم الجمعة التالي سيكون أول أيام شهر رمضان المبارك لهذا العام، وبالتالي فقد أصبحنا صائمين، وتمنينا أن يتقبل الله _ سبحانه _ منا ومن المسلمين الصيام والقيام وصالح الأعمال. كما تمنينا أن تكتمل الفرحة بقدوم والدتي ووالدة زوجتي أم فرحة من الوطن، وفعلًا فقد اكتملت الفرحة بقدومهم يوم الثامن من شهر رمضان المبارك، وقد ذهبت الى أوتوغار آشتي لإحضارهم من هناك. وقد قدمت معهم قريبتي أم أنس زوجة الشهيد أبي أنس _ رحمه الله _ ، والذي كان مقتله السبب في هجرتي من الوطن، وطلبي المنفى.

طبعًا كانت فرحتي كبيرة برؤية والدتي التي لم أرها منذ شهر شباط الماضي، ورؤية الحاجة أم عبد أم زوجتي ورؤية أم أنس وبناتها والذين لم أرهم منذ سنة ونصف تقريبًا. وكانت فرحة زوجتي وابنتي فرحة بقدومهم كبيرة، وأخذ الجميع في تبادل العناق والبكاء.

كان من ضمن الأشياء التي طلبتُ من والدتي إحضارها إليّ شجرة نسب عشيرتي، وفعلًا قد أحضرتْها أمي من الوطن، وشعرتُ بإعادة النظر إليها وتفحّصها من جديد، على ضوء ما استجد لديّ من علم الأنساب.

اشتملت الأيام التالية على جولات في مدينة قرّقلا من أجل أن تسكتشفها أم أنس وبناتها، وكانت أم أنس تحاول إيجاد مخرج لأبنائها من الفتن والملاحم في الوطن، وطلبتُ منها أن تستخير الله _ سبحانه _ من أجل أن يقدر لها الخير ولأولادها. ولكن أم أنس لم تستمر معنا طويلًا، فقد قررت أن تعود إلى الوطن بعد أيام قلائل بسبب بعض الالتزامات هناك.

مرت الأيام اللاحقة بسرعة، وودّعنا شهر رمضان المعظم، متمنين من الله _ سبحانه _ أن ينعم علينا بالقبول والرحمة والغفران.

في أول أيام العيد المبارك ذهبنا إلى نهر باهشلي سويًّا، وهناك قضينا يومًا ممتعًا، فقد قمتُ بشيِّ لحم الدجاج لنا جميعًا، والطماطم والبصل، وغير ذلك، ولم نعد إلى البيت يومها إلا بعد العصر!

انتهى العيد، وقررت والدتي وأم زوجتي العودة إلى دار السلام، وكان ذلك بعد يومين من انقضاء العيد، وبالطبع كان الفراق مؤلمًا جدًّا فقد غُصّ الجميع ببكاء عميق!

واصطحبتُ أمي وأم زوجتي إلى أوتوغار عمورية، وودعتُهما على أمل اللقاء من جديد _ إن شاء الله _، وأخذتُ أرقب الباص وهو يبتعد شيئًا فشيئًا إلى أن غاب وجه أمي عن ناظري!

رحلت الوالدة ولكن بقي العشق في قلبي، فعشق قرقّلا قد شمل كل شيء من عشق الله ورسوله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ إلى عشق الأم التي رافقت هذه الرحلة بدعائها في جوف الليالي، إلى عشق الزوجة الصابرة التي صارت جزءًا مصيريًّا من العمر، وإلى عشق البنت البريئة التي لم تشبع من الوطن.

في قرقّلا عشقت الخالق والمخلوق، عشقت الإنسان والأكوان، عشقت الحقيقة والرحمة والإحسان...

وأخذنا نحضر أنفسنا للرحيل إلى المنفى النهائي _ إن شاء الله _، فنسأل الله _ سبحانه _ أن يصحبنا في سفرنا، وأن يخلفنا في أهلنا، وأن يهون علينا سفرنا، وأن يطوي عنا بعده، بإذنه _ سبحانه _، فهو نعم المولى ونعم المجيب _ جل شأنه _.